اليقـــــين

«مركب المسافر إلى الله»

إبحار في أعماق القرآن

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

رقم الإيداع
٢٠١٩/١٣٩٠٨

دار الإيمان للمعرفة
١ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر
تليفون/ ٠١٠٠٥٧٦٠٦٦٣ - ٠١١١٨٩٣٣٦٢٤
بريد الكتروني/ elhbibmohamed@gmail.com

اليقـــــــين
«مركب المسافر إلى اللّه»
إبحار في أعماق القرآن

توحيد الزهيرى

١ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر
تليفون/ ٠١٠٠٥٧٦٠٦٦٣ -
٠١١١٨٩٣٣٦٢٤

تقديم

أقدم على صفحات هذا الكتاب دراسة مستفيضة لمفهوم «اليقين»، كما تجلَّى لي على سماء النص القرآني الحكيم.

فقد تناولت بالتفسير والتأويل (الفهم المزيل للغموض) مائة واثنتين وعشرين آية من آيات الذكر الحكيم من اجل تقديم صورة واضحة ورؤية عميقة لمعنى «اليقين».

وأرجو من الله سبحانه وتعالى ان أكون قد وُفقت في تقديم نموذج لما يجب أن يكون عليه التعامل مع القرآن الذي أنزله الله ليكون الصراط المستقيم للوصول إلى «حق اليقين».

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

ونقدم من بعده مقالات في التفسير تحت عنوان عام "إبحار في أعماق القرآن".

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦].

۞ ۞ ۞

معنى لفظ «اليقين»

(١)

جاء ذكر «اليقين» في القرآن الكريم في ثمانية وعشرين موضعًا بمختلف اشتقاقاته اللفظية: اليقين، يوقنون، ليستيقن، استقينتها، مستيقنين، موقنين.

فما هو اليقين؟

اليقين اسم للمقام الذي تنمحي فيه الشكوك تمامًا عن الشيء موضع النظر؛ فيصبح الشيء حقًا؛ أي مشهودًا لا تحوم حوله الشكوك.

(٢)

عندما انفلت "الهدهد" من جماعة جيش النبي الملك «سليمان» - عليه الصلاة والسلام- وافتقده سليمان عندما بحث عنه، فلم يجده، توعده بالذبح أو العذاب الأليم إن رآه.

فلما رجع "الهدهد" وعلم بما قال «سليمان» ذهب إليه ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: ٢٢].

بنبأ يقين: بخبر عظيم لا يشوبه ظل من شك، فوصف النبأ بأنه

"يقين"، يعني أنه حق مشهود لا تكتنفه الشبهات ولا تخالطه الظنون.

إذن اليقين هنا متعلق بخبر (نبأ) لم يشهده سليمان، ولكنه يمكنه إقامة الدليل على صحته (صوابه) ثم يمكنه شهوده أي التحقق منه.

واستعمل "الهدهد" في التعبير لفظ الإحاطة ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ ولم يقل علمت بما لم تعلم للدلالة على صدقه وشدة تثبته (تبينه) من الخبر.

لقد شهد (رأى وسمع وحضر) الهدهد ما كان من قوم سبأ. ثم نقل النبأ إلى «سليمان» عليه الصلاة والسلام الذي صدقه (آمن بما قاله الهدهد) ويمكنه التحقق من صدقه وصحة الخبر.

(٣)

ومن قبل سليمان -عليه الصلاة والسلام- كان موسى الذي أتى فرعون وملئه بالآيات البينات (الدلائل الواضحة) على أنه مرسل من الله رب العالمين.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣-١٤].

وصف حال الآيات بأنها "مبصرة" يعني قادرة على الرؤية؛ للإشارة إلى أنها تحمل النور إلى الناس الذي يُمكنهم من الرؤية؛ فإن الرؤية تتحقق بوصول النور إلى الأبصار (الأعين). فهذه الآيات الإلهية

تحمل النور إلى الأعين التي إن استقبلت النور وتلقته رأت. وإن تجاهلته وتغافلت عنه عميت، أي عجزت عن الرؤية كأنها أُغمضت أو أُغلقت فلم يصل إليها النور.

﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: ادّعوا أن ما جاء به موسى عليه الصلاة والسلام إنما هو من قبيل خداع الحواس والتلاعب بالعقول (الأفئدة).

ولذلك ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾: أنكروا أن تكون آيات من الله الخالق سبحانه وتعالى لتأكيد صدق رسوله.

ولكنهم في قرارة أنفسهم، أعني في عمق ذواتهم كانوا يتبينون دون أدنى شك أنها آيات إلهية. فهم يعلمون في باطن أنفسهم حقيقة الآيات ولكنهم يرفضون الإذعان إلى تلك الحقيقة ويعلنون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم (بواطنهم).

وهذا هو معنى «الكفر» الذي يدل لغةً على التغطية أو كتم الحقيقة. وعبر سبحانه وتعالى عن العلم بالشيء؛ أي تبينه دون شك بلفظ "الاستيقان" الذي يعني امتلاك الدليل على صحة الشيء المعروض للنظر أو صحة (صواب) الخبر.

والذي بعث فرعون وملئه على الجحد (إنكار الحقيقة) هو الظلم والعلو ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

ظلمًا: كفرًا أي سترًا وكتمًا للحقيقة. فالكافر يريد إخفاء الحقيقة.

وعلوًا: وكبرًا أي تعاليًا على الحق وعلى الناس.

«**الكبر من بطر الحق وغمط الناس**» الحديث رقم ٤٦٠٨ في كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير" عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والمعنى: يتصف بالكبر المحرم من:

- **بَطَر الحق**: استهان بشأن الحق فرأى نفسه "أكبر" من الإذعان له. والحق يعني: العلم والعدل. والعلم ما قام على الدليل. والعدل هو حفظ حقوق الخلق.

فمن استهان بالدليل العقلي الذي يبرهن على صحة القضية المطروحة للتفكر فقد تكبر، إذ رأى نفسه "أكبر" من الدليل الذي يقيم العلم.

- **غمط الناس**: احتقر الناس، ورأى أنه أكبر منهم، فسول له ذلك الاعتداء على حقوقهم الواجبة لهم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ دعوة للنبي ﷺ أن ينظر ليرى النهاية التي صار إليها المفسدين.

عاقبة: خاتمة مصيرهم.

ومعنى الأمر الإلهي بالنظر هو أن النبي ﷺ كان بوسعه -بموجب النبوة (الوحي) والتأييد الإلهي- أن يرى نهاية فرعون وملئه وجنوده. ونهاية حياتهم بالغرق في البحر الأحمر. وذلك من أنباء الغيب التي بوسع النبي أن يراها ليتيقن (يزول شكه في صحة الخبر الإلهي) بمعاينة (رؤية) مشهد غرق فرعون وجيشه.

وكذلك كان بوسعه ﷺ أن يرى عاقبة أرواحهم في البرزخ. وذلك أيضًا من أنباء الغيب الذي يصبح مشهودًا باليقين.

(٤)

ومن بعد «سليمان» عليه الصلاة والسلام، جاء المسيح عليه الصلاة والسلام، فكذبه اليهود واتهموه بالسحر واتهموا أمه بالزنا. وتآمر عليه كهنة الهيكل (معبد اليهود) ليقتلوه. وادّعوا أنهم قد تمكنوا من قتله بالصلب وكان ذلك -بزعمهم- دليل على أنه ساحر كذاب.

قال الله سبحانه وتعالى واصفًا دعواهم الباطلة: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [النساء: ١٥٧].

﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾: نفي لتمكنهم من قتله -عليه الصلاة والسلام-. ولما كان قد اختفى أو غاب عن شهود الدنيا؛ فذلك النفي الإلهي إشارة إلى

بقائه حيًا لم يزل في السماء الثانية، يحيى كملك مقرب. ولكن تلك قصة أخرى ليس لها مكان في هذا المقام.

﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾: نفي لتمكنهم من رفعه على الصليب.

ولكن الصلب قد وقع بالفعل. فعلى من وقع لصلب؟ أو من هو المصلوب؟ والإجابة: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

قد وقع شَبَهه أو حلت صورته على رجل آخر فصُلب بدلًا منه. والرجل الآخر الذي صُلب بدلًا من المسيح، هو التلميذ الخائن يهوذا الإسخريوطي، الذي اتَّفق مع رجال الهيكل على أن يدلهم على المكان الذي اختبأ فيه المسيح مقابل أن يعطوه مبلغًا.

ولما جاء الجنود الرومان في الليل بالمشاعل والأسلحة ليقبضوا على المسيح (يسوع الناصري) بعد أن أخبر يهوذا الإسخريوطي رجال الهيكل بأن المسيح يختبأ مع تلاميذه في بيت نيقوديموس الفرِّيسي، فإن الله قد استجاب لتضرع عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام فرفعه إلى السماء بصحبة الملائكة وترك ملابسه على الأرض.

وأخذت الجنود الرومان والتلاميذ المجتمعين في بيت "نيقوديموس" رجفة شديدة، فسقطوا مغشيًا عليهم ووقعت مشاعلهم. وكان الوحيد الذي "رأى" الآية هو يهوذا الإسخريوطي. الوحيد الذي شاهد المسيح المعلم يسوع الناصري وهو يتحول إلى ملك ويصعد إلى السماء.

فلما أفاق الجنود الرومان رأوا التلاميذ يفرون منهم حتى لا يُقبض عليهم ورأى الجنود يهوذا واقفًا مذهولًا مرتعشًا شاخصًا ببصره إلى السماء. ورأوا الملابس واقعة على الأرض؛ فظنوا أن المعلم يسوع الناصري الذي جاءوا من أجل القبض عليه قد خلع ملابسه، وارتدى ملابس أحد تلاميذه واستعد للهرب. فألقوا عليه الأيادي وساقوه إلى السجن ظانين أنه هو المطلوب. فصُلب يهوذا بدلًا من معلمه الذي خانه.

أُحيطت حادثة الصلب بشكوك كثيفة فكان القبض على المطلوب ليلًا. والتلاميذ فروا واختبأوا. ويهوذا الذي قُبض عليه ظنًا أنه المسيح (المعلم يسوع الناصري) التزم الصمت المطبق من هول ما شاهد، ولأنه عزم الصوم عن الكلام؛ ولأنه حتى لو تكلم ما كان أحد ليصدق حكايته الجنونية. كان يطمع أن يغفر الله له وينجيه كما نجى مسيحه.

ولذلك طوال أيام السجن والتعذيب والمحاكمة رفض أن يقول "من هو"؟ حتى شك فيه الرومان. وربما لم يشك الكهنة والآخرون، لأن صورة المسيح كانت على وجهه. ولكنهم ارتابوا.

"لماذا لم يتكلم ويُعرف نفسه؟ لماذا لم يُظهر معجزة (آية) كتلك المعجزات الكثيرة التي سبق له أن أظهرها: إبراء الاكمه والأبرص وإحياء الموتى،....؟"

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ﴾: وإن الذين تباينت أراؤهم في المسيح وفي المصلوب كانوا في شك منه لم يتبينوا حقيقة أمره.

﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ﴾: ليس لديهم أي دليل يقطع بصحة قولهم أن المصلوب كان المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام.

﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾: إلا سيرًا وراء فكرة (مقولة) غلبت على عقولهم دون أي دليل قطعي على صحتها لكي تتحول إلى "علم".

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾: يقينًا -هنا- حال، تبين أنهم لم يقتلوا المسيح عيسى بن مريم "دون أدنى شك". فلفظ اليقين يعني المحو التام للشك في الخبر المعروض للنظر.

(٥)

وبعد عيسى -عليه الصلاة والسلام- جاء محمد خاتم النبيين -ﷺ. فتلا على الناس القرآن (الوحي الإلهي) الذي أنزله الله عليه فأخبرهم عن الله، والحياة الآخرة، والبعث من القبور والعودة إلى الحياة بعد الموت، والحساب بين يدي الله والجنة والنار.

فلما أنبأهم أن خَزَنة (حُراس) جهنم تسعة عشر، في سورة المدثر التي افتتحت عهد التكليف بإبلاغ الرسالة (الدعوة العلنية) في مطلع العالم الثالث بعد نزول القرآن، فأثار ذلك الخبر ردود أفعال مختلفة،

وصفها الله بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۖ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

﴿أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾: خزنة أو حراس النار الواقفون على أبواب جهنم (نار الآخرة) يُقذفون فيها من حَكَمَ الله عليهم بدخولها، ويمنعون من أراد أن يخرج منها من شدة ما يعانيه من عذابها.

وعلينا أن نميز هنا بين هؤلاء الخزنة أو الحراس؛ وبين الملائكة الذين يحملون جهنم ويأتون بها من الغيب إلى الشهادة يوم القيامة حين يصبح اليقين بها يقين معاينة أو عين يقين في المقام الذي قال الله فيه: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦].

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

عندما يرى المجرمون النار يزول شكهم فيها. إنه اليقين (زوال الشك) القائم على الرؤية (المعاينة). إنه عين اليقين. ولكن يبقى ظل من شك في نفوسهم. هل سندخلها ونخلد فيها؟

﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾

المواقعة: تبادل الوقوع على بعض بين طرفين. فهو فعل يدل على الالتحام. ومن ثم استعمل للتعبير عن الجماع بين الذكر (الرجل) والأنثى (المرأة). ههنا عند الرؤية -في مقام عين اليقين- يظن المجرمون أنهم مواقعوا النار: داخلون فيها وملتحمون معها حيث يصيرون جزءً لا يتجزأ منها. ولكنه -ههنا- في مقام الرؤية (عين اليقين) مجرد ظن، مجرد فكرة تغلب على أفئدتهم. فإذا ألقوا فيها وواقعوها (التحموا معها) صاروا من عين اليقين إلى حق اليقين.

قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**» الحديث رقم ٨٠٠١ في كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير" عن ابن مسعود رضي الله عنه وأخرجه مسلم والترمذي.

إذن نحن أمام قرابة خمسة مليارات من الملائكة يحملون جهنم في يوم القيامة يجرونها -من شد ثقلها- من الغيب إلى الشهادة. فإذا وُضعت واستقرت، عُيّن عليها تسعة عشر ملكًا يقومون على حراستها.

ولنا أن نتصور القوى التي يتمتع بها أولئك التسعة عشر المكلفين بحراسة مبنى بلغ من الثقل أنْ حمله ما يقرب خمسة مليارات من الملائكة

(الكائنات النورانية) لكي يأتوا به من الغيب إلى الشهادة.

وقد وردت أخبار تصف أولئك التسعة عشر أوردها الإمام القرطبي في تفسيره للآية ٣١ من سورة المدثر. ونبينها فيما يلي:

- ما بين منكبي (كتفي) الواحد منهم مسيرة سنة، كما بين المشرق والمغرب.

- قوة الواحد منهم أن يضرب بالمقمع (العصا الغليظة التي تقمع من يريد الفرار من العذاب) فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم.

- كأن أعينهم البرق وكأن أفواههم الصياصي (القلاع أو الحصون المرتفعة) يجرون أشعارهم. لأحدهم من القوة مثل قوة الثقلين (الجن والإنس) يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل فيرميهم في النار ويرمي فوقهم الجبل.

وبالطبع هذا وصف ممن رآهم ﷺ. ويأتي هذا الوصف بيانًا وتاكيدًا لخبر القرآن الذي وصف خزنة جهنم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾: لا تتولد فيهم إرادة المعصية عندما ينزل إليهم الأمر الإلهي.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾: ويسارعون بطاعة الأمر الإلهي فلا يتكاسلون ولا يتقاعسون.

ووصفت الأحاديث النبوية سالفة الذكر الغلظة والشدة الواردتين في الآية القرآنية، ووصف الله المقامع التي بأيدي حرس جهنم والتي يضربون بها الكافرين المحكوم عليهم بالبقاء في سجن جهنم كلما أرادوا أن يخرجوا فرارًا من شدة العذاب.

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢١-٢٢].

ورئيس حراس (خزنة) جهنم هو «مالك» المذكور في قول الله سبحانه وتعالى على لسان الكافرين المحبوسين في جهنم: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

ينادون على رئيس حراس جهنم أن يتشفع لهم عند ربه لكي يميتهم الله وينقذهم من هذه الحياة -في جهنم- التي هي أسوأ من الموت. إنها عذاب خالص.

يرفض طلبهم ويخبرهم أنهم باقون في العذاب إلى النهاية، نهاية الأحقاب (الأزمان بالغة الطول) التي حكم الله عليهم بقضائها في العذاب.

قوله: إِلَّا مَلَائِكَةً معناه: إن حراس جهنم ليسوا إلا كائنات نورانية؛ أي "أرواح" لا يموتون، ولا سبيل إلى إيذائهم أو إهلاكهم؛ لأنهم يستمدون حياتهم من «روح الله»، لا يقطعهم عنه حجاب صور مظلمة (معتمة). وهم جنود الله الذين لا سبيل إلى التغلب عليهم. وبهذا القول رد الله سبحانه وتعالى على عمرو بن هشام (أبي جهل) وعلى أبي الأشد بن كلدة الجمحي، ومن كان على شاكلتهما من كفار قريش. وذلك لأن أبا جهل عندما سمع قول القرآن في وصف «سقر» وهي إحدى مراتب نار الآخرة بأن ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]. قال للملأ من قريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة (يقصد النبي محمد ﷺ بنسبته إلى أبيه من الرضاعة أبي كبشة زوج مرضعته حليمة السعدية) يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدَّهم -أي العدد الكبير- والشجعان، فأيعجز كل عشرة منكم أو مائة أن يبطشوا بواحد منهم ثم تخرجون من النار.

أما أبو الأشد بن كلدة فقال: لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة منهم، وبمنكبي الأيسر التسعة ثم تمرون إلى الجنة. أو أكفيكم أنا سبعة عشر وأكفوني أنتم اثنين. وأخذ يضحك مستهزئًا ويضحكون معه ساخرين!!

ولـــذلك قـــال الله في الآيـــة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾. والمعنى: وأنزلنا البيان بعدد حراس جهنم -وهم تسعة عشر فقط- ليراهم الكافرون قليلًا؛ فيبعثهم كبرهم على الاستهانة بهم، ويظنون بسبب جهلهم أنهم قادرون على البطش بهم والقضاء عليهم (قتلهم) غير منتبهين إلى أن حراس جهنم ملائكة (أرواح) شديدة القوة، فلا هم يموتون ولا يقدر على التغلب عليهم أحدٌ من الإنس أو الجن.

فكان هذا العدد القليل سببًا في إضلال الكافرين. وهذا هو معنى أنه كان «فتنة» لهم أي امتحانًا عسيرًا يفضي بهم إلى الضلال والهلاك.

وكان بعض اليهود في مكة قد أرادوا تشكيك المؤمنين في إيمانهم، والاستخفاف بهم لجهلهم بأمور الغيب التي يعتبر اليهود أنفسهم أنهم العلماء الخبراء بها. فقالوا لبعض المؤمنين: أتعلمون عدد خزنة جهنم؟

فأجاب المؤمنون: لا ندري حتى نسأل نبينا.

فقال اليهود: وهل يعلم نبيكم؟!

فأصابت المؤمنون حيرة شديدة ووقع الشك في قلوبهم. وأسرع رجل إلى نبي الله ﷺ، فقال له: يا محمد قد غُلب أصحابك اليوم!!

فقال رسول الله بهدوء: وبم غُلبوا؟

قال الرجل: سألهم يهود هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟

قال رسول الله: فماذا قالوا.

قال الرجل: قالوا لا ندري حتى نسأل نبينا.

فقال نبي الله مطمئنًا: أفغلب قوم سئلوا عما لا يعلمون فقالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا؟!! لكنهم (يقصد اليهود) قد سألوا نبيهم فقالوا أرنا الله جهرة.

ونزل عليه الوحي ببقية سورة المدثر.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المدثر: ٣٠-٣١].

﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾: ليمتلك الدليل المنشئ للعلم. والعلم هو الفكرة الصحيحة (الصائبة) التي قام الدليل على صحتها.

فكانت إجابة القرآن بعدد خزنة جهنم ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ وكان وصف الرسول ﷺ لهم دليلًا لا يدحض على أنه يتلقى العلم من الله عبر الوحي الإلهي الذي من المحال أن يُخطئ.

فبإجابة القرآن بالعدد وبوصف رسول الله للملائكة التسعة عشر امتلك أهل الكتاب (اليهود) الدليل على صدق النبي محمد ﷺ في دعوى أنه نبي يتلقى الوحي من الله.

﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾: ويقوى إيمان المؤمنين بوجود الدليل الذي

أقنع أهل الكتاب (اليهود) بصدق النبي ﷺ عندما أجاب عن سؤالهم بثقة ودون تردد، ولم يستطيعوا معارضته أو إعلان خطئه، فيزول الشك من قلوب المؤمنين.

وهذا هو معنى زيادة الإيمان، الذي يظل يزداد (يكتمل) طاردًا الشك من القلب حتى ينمحي الشك تمامًا أي يتم الإيمان (يصل إلى غايته) فيتحول إلى «اليقين».

ولذلك قال بعدها مباشرة: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. ونفي الارتياب (الشك) هو اليقين.

ولنلاحظ هنا ان كلًا من أهل الكتاب (بعض اليهود) والمؤمنين (المسلمين) قد أصبحوا بعد إجابة النبي ﷺ عن السؤال على يقين من أنه نبي مرسل من الله، فكلهم لا يرتابون في تلك الحقيقة. ولكن سيبقى بعض أهل الكتاب -رغم يقينهم- كافرين مكذبين بنبوة محمد. فما الذي دفعهم إلى هذا التناقض مع أنفسهم؟ إنه الكبر الذي يعني بطر الحق وغمط الناس. ههنا نتذكر ردة فعل فرعون وملئه عندما جائتهم آيات الله مبصرة.

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾

هنا يستعمل القرآن الكريم نفس اللفظ «استيقن».

الكبر هو مرض القلب المانع من اليقين

(٦)

ولقد توهم المفسرون السابقون أن تعبير القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني المنافقين. ولذلك ظنوا أن قول الله سبحانه وتعالى في هذه الآية (٣١ من سورة المدثر): ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، أن المقصود بالذين في قلوبهم مرض هم المنافقون. ولما كان النفاق لم يحدث إلا في المدينة المنورة (يثرب) بعد الهجرة، ولم يكن في زمن الاستضعاف بمكة؛ لذلك توهموا أن هذه الآية نزلت في المدينة بعد الهجرة، وهو رأي خاطئ يتضارب مع سياق الآية والظرف التاريخي لنزولها، كما بيّنا.

والمرض المذكور في الآية هو "الكبر" -وكما بيَّن رسول الله ﷺ هو بطر الحق وغمط الناس- وهو الذي يدفع الإنسان إلى رفض الإذعان لمقتضى الدليل. فيعلن رفض ما يسلم في قلبه (قرارة نفسه) بصحته. وهو المرض الذي يعاني منه الكافرون، ومن يدَّعون الإيمان (المنافقون) وضعاف الإيمان الذين لا تزال الشكوك تخالط إيمانهم وتحيرهم الشبهات.

ولقد ميَّز القرآن الكريم بين الذين في قلوبهم مرض والمنافقين بقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

بيَّن أن الذين في قلوبهم مرض الكبر -المانع من الإذعان إلى الحق- صنف آخر من الناس من غير المنافقين، والمقصود إنهم ضعاف الإيمان وهم الذين دخل نور الإيمان في قلوبهم، ولكنه لم يستقر (يثبت) في القلوب لوجود الكثير من الشبهات (القضايا الملغزة المحيرة) التي تبث الشك وتهز الإيمان. فهؤلاء إما أن ينتهي مصيرهم إلى طرد الإيمان من قلوبهم؛ فيمسوا كافرين. فإن أعلنوا الكفر فهم «الكافرون» وإن أبطنوه وأظهروا الإيمان فهم «المنافقون». أو ينتهي الصراع بين الإيمان (التصديق بالرسالة) وبين الكفر (التكذيب بها) في قلوب ضعاف الإيمان الذي في قلوبهم مرض الكبر بسبب الشبهات التي تبث الشك... ينتهي الصراع الباطني (القلبي) إلى ثبات الإيمان وزوال الشك.

فإذا اكتمل الإيمان وبلغ التمام وُلد «اليقين».

ضعاف الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هم الذين يقولون: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ﴾.

مثلًا: حديثًا أي كلامًا.

يقولون ماذا يريد الله من هذا الكلام. يتساءلون ويشككون في غاية الله سبحانه وتعالى من إيراد هذا الكلام. "هل يستهزئ بنا؟ ولماذا كانوا تسعة عشر فقط؟! هل لا يملك الله إلا تسعة عشر جنديًا؟! وكيف يمكن لتسعة عشر حارسًا أن يمنع ملايين الخلق من الجن والإنس من الهروب من النار؟!.....

كل هذه الأسئلة التي يثيرها ضعاف الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والكافرون سواء أعلنوا كفرهم أو أخفوه (فصاروا منافقين) إنما يدل على وجود الشك في رسالة الله.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾

﴿يَشَآءُ﴾: يختار. والاختيار انتقاء شيء من عدة بدائل متشابهة.

واختيار (مشيئة) الله الضلال (الكفر) لبعض خلقه، واختياره (مشيئته) الهدى (الإيمان) للبعض الآخر من حقائق الغيب الذي احتفظ الله سبحانه وتعالى بعلمه. ولكنه جل جلاله باختياره (بمشيئته) لا يُجبر (يُكره) أحدًا من خلقه على عمل ما لا يريد، فإن العبد يعمل ما يريد. وضرب الله سبحانه وتعالى لبيان هذه الحقيقة مثلًا بالإخبار في الوحي بأن حراس النار تسعة عشر ملكًا. فهذا الخبر الإلهي أثار السخرية في نفوس الكافرين المتكبرين مثل أبي جهل وأبي الأشد بن كَلَدة. ووجد فيه بعض أهل الكتاب من اليهود دليلًا على صدق النبي ﷺ وتيقنوا من

ذلك، وإن بقي أكثرهم على الكفر (التكذيب). ووجد فيه المؤمنون دليلًا على صدق النبي ﷺ فازدادوا إيمانًا. ووجد فيه ضعاف الإيمان والكافرون مجالًا للتشكيك في صحة الرسالة.

وهكذا أصبح "الخبر الواحد" أو الحقيقة الواحدة باعثًا على إثارة العديد من الإجابات (ردود الأفعال) التي يعبر بها كل فريق ما أودع في قلبه (باطنه). وبهذا نفهم أن الوحي الإلهي إنما هو وسيلة لاستخراج ما اودع في القلوب من علم الله القديم؛ أعني وسيلة للكشف عن اختيار الله أي مشيئة الله التي سبقت الخلق، دون أن يُكره الله جل جلاله أحدًا من عباده على عمل ما لا يريد. وبذلك كان إنزال عدد حراس جهنم في القرآن مثلًا مضروبًا لبيان حقيقة المشيئة الإلهية السابقة على خلق هذا الكون.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾

جنود ربك هنا هم الملائكة: الكائنات السماوية. وبهذا التعبير شبَّه الله سبحانه وتعالى "روحه" بقائد الجيش، والملائكة بالجنود الذين يتلقون الأوامر من القائد ليقوموا بتنفيذها.

والملائكة -كما قلنا- كائنات نورانية فهم "الأرواح" الذين يستمدون كياناتهم وقدراتهم من «رُوح الله» لا يقطعهم عنه صور ممظلمة (معتمة). وهم خالدون لا يموتون. فبموجب هذا التعريف أو

هذا التكوين هم وسائل الله سبحانه وتعالى في تحقيق إرادته أو هم أيديه -جل في علاه- في الكشف عن علمه.

ومن ثم فلا يعلم حقيقتهم وعددهم وقدراتهم وصفاتهم ووظائفهم " إِلَّا هُوَ" سبحانه وتعالى.

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾: وليست الحياة الدنيا إلا ميدانًا للبشر يتذكرون فيها علم الله القديم المخبوء في أنفسهم، عندما كانوا هنالك قبل خلق هذه السماوات وهذه الأرض.

وعندما يرجع الناس إلى ربهم يوم القيامة، فإنه يوقف الكافرين بين يديه، ويقول لهم موبخًا ومذكرًا بما كان منهم في حياتهم الدنيا عند ابتلائهم.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣١-٣٢].

﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾: فوجدتم أنفسكم "أكبر" من الإذعان للحق. أكبر من الخضوع للأدلة التي تقضي بوجوب الإيمان بالله خالقكم وطاعته.

﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾: تحاربون المؤمنين وتسعون جهدكم من أجل تشكيكهم في إيمانهم وإخراجهم إلى الكفر (التكذيب برسالة الله) ليكونوا مثلكم.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: لقاء الله، قيام الناس بين يدي الله للحساب على أعمالهم ونيل الجزاء.

﴿حَقٌّ﴾: مشهود؛ لا سبيل إلى الشك في حضوره.

﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾: لحظة نهاية الحياة الدنيا على وجه الأرض. وبداية الحياة الآخرة ببعث الموتى من قبورهم.

﴿لَارَيْبَ فِيهَا﴾: لا شك فيها؛ فإنها آتية لا محالة، مشهودة حتمًا مقضيًا. وبها يبدأ زوال الشك وتحقق اليقين لكل الخلق، فهي سبب زوال الشك.

كنتم إذا قيل لكم: إن لقاء الله مشهود لا تكتنفه الشكوك، والساعة آتية لا محالة تحمل اليقين لكم ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

«الدراية»: العلم بالشيء قبل أن يقع فهي علم المستقبل، في مقابل «الخبرة» التي هي علم ما سبق أي علم الماضي.

كانت حجتكم في إنكار لقاء الله وقيام الساعة أنكم لم يسبق لكم العلم بالساعة فإنها من المستقبل الذي لم يقع بعد ولا دراية لكم بها.

إذن فأقصى ما يمكننا العلم به منها، غاية ما نستطيع تبينه منها هو فكرة ليس عليها دليل يقطع بصحتها، ومن ثم فإنها لن تتحول إلى «علم» لنا. ما هي إلا ظن لا نستطيع تأكيده (التيقن من صحته) ولا نفيه

(التيقن من بطلانه) ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

﴿بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾: ممتلكين "الدليل" على صحة (صواب) القضية التي يعرضها "الخبر"، وامتلاك الدليل هو «العلم». ومن ثم فقوله ﴿بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ معناه: بعالمين فالعلم هو أول اليقين.

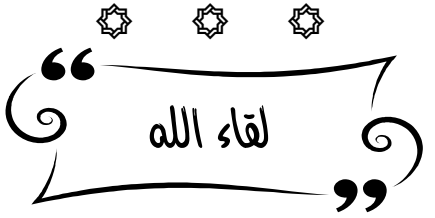

(٨)

ونستنبط مما سبق أن لقاء الله هو القضية الأولى التي تحملها رسالة الله، أو بالأحرى هي القضية الكبرى التي تندرج فيها كل القضايا "الفرعية" التي حملها الوحي الإلهي.

هذه هي الحقيقة التي أعلنها القرآن الكريم في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: ٢].

﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فصل السماوات عن الأرض بعدما فتق الشيء الأول أو "أول خلق" الذي يسميه علماء الفيزياء الكونية: المفردة الأولى

التي انبثقت (انفجرت) منها الطاقة التي نشأ منها هذا الكون من "الانفجار العظيم" الذي حدث في المفردة الأولى.

والذي أشار القرآن إليه في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿رَتْقًا﴾ **رتقًا**: شيئًا مضمومًا، قد جُذبت وجُمعت والتصقت أجزاؤه ببعضها.

﴿فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ﴾: ففصلناهما، وأبعدنا السماء التي ستصير سماوات ورفعناها فوق الأرض لمن ينظر إليها من الأرض. فرفع السماوات يعني أنها كانت -قبل الفتق- ملتصقة بالأرض.

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾: بدون أعمدة رَفَعَ السماوات فوق الأرض؛ فإذا كانت السماوات هي السقف المرفوع فوق الأرض، فإن هذا السقف المرفوع لا يقوم على أعمدة.

﴿تَرَوْنَهَاۖ﴾: جملة حالية. والمعنى: رَفَعَ السماوات فوق الأرض وأنتم ترونها. والمقصود وكنتم ترونها وهي ترفع فوقكم. والإشارة إلى خلقنا الأول القديم "نشأتنا الأولى" من الأرض، في نهاية اليوم الرابع من أيام (أحقاب) الخلق عندما نادى الله على السماء والأرض وأمرهما أن يحضرا إليه ثمرات عمل «رُوحه» في الأرض عندما باركها وقدر فيها أقوات

الخلائق التي نتجت من عمل «روح الله» في الأرض.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾: ثم صعد "بروحه" من الأرض إلى السماء وهي دخان.

﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾: والسماء في حالة من السيولة والتفكك لم يتحقق بناءها بعد.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾: خاطب الله السماء والأرض آمرًا إياهما بإحضار ثمرات عمل "روحه" (سر الحياة) طالبًا منهما أن يقدما له الكائنات (المخلوقات) التي نبتت من تأثير «روح الله» في تربة الأرض.

وكان الأمر الإلهي للسماء والأرض جازمًا حاسمًا لأي تردد أو تقاعس: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾: اختيارًا أو إجبارًا. ائتياني بهم سواء اختاروا إجابة طلبي فحضروا إليَّ برضاهم أو رفضوا إجابة ندائي فأتوا بهم مُكرهين.

واستمعت -هنالك- الخلائق إلى نداء الله. واختاروا أن يأتوا إليه راضين. ولم يكن في وسع أحد من الخلائق أن يجيب النداء ويصعد إلا البشر الذين هم على صورة «روح الله». فأسرعوا يلبون النداء، وصعدوا

من الأرض إلى «روح الله» الذي ضمهم إليه، وأخذ يصعد بهم ويشق طريقه في السماء.

﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾: فقالت السماء والأرض أتيناك بهم وهم طائعون راضون.

كنا -نحن البشر- أولئك الخلائق الذين أجابوا نداء الله وصعدوا إلى روحه وهو يرتفع في السماء. وتلك هي نشأتنا الأولى من الأرض.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾ [فصلت: ١٢].

﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾: فأنزلهن (رتَّبهن). والضمير يعود إلى نفوس البشر أي حقائقهن، في ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾: سبعة سقوف تعلو الأرض، تكونت بحركة «روح الله» حول نقطة المركز التي كان فيها على الأرض قبل ارتفاعه إلى السماء. هذه السماوات السبع هي سبعة طوابق أو سبع طباق واحدة فوق أخرى. وهي سبع طرائق أو سبعة طرق؛ لأنها نشأت من طواف «روح الله» سبعة أشواط. وكان يترك ويضع في كل سماء (طبقة أو طريق) بعضًا من النفوس في طريقه صاعدًا نحو السماء السابعة الأخيرة التي تحت العرش الإلهي.

وهكذا تناثرت وتوَّزعت «النفوس» (حقائق المخلوقات) على السبع سماوات.

﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾: واستغرق ذلك العمل الذي هو بناء السماوات السبع وتقسيم النفوس عليها يومين من أيام (أحقاب) الخلق الستة. وهي فترة زمنية تقدر بمليارات السنين. ربما يقارب خمسة مليارات من السنوات الأرضية.

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾: وأنزل في كل سماء من السماوات السبع كتابها الذي هو نصيبها من كتاب العلم الإلهي المسمى «اللوح المحفوظ». وبذلك حملت السماوات السبع نسخة من اللوح المحفوظ (كتاب العلم الإلهي) والنسخة السماوية من اللوح المحفوظ هي التي سمَّاها القرآن الكريم «الكتاب المبين».

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾: وكان القرآن الكريم ضمن محتويات اللوح المحفوظ. وبنزول نسخة من اللوح المحفوظ إلى السماوات السبع، نزلت نسخة من القرآن الكريم إلى السماء الدنيا: إلى «بيت العزة» في السماء الأولى القريبة من الأرض. وذلك هو «النزول الأول» للقرآن الكريم، والذي كان سببًا في إنارة السماء وتزيينها بالنور الذي ينبعث من النجوم، وينعكس من أسطح الكواكب والأقمار،

فصارت النجوم بمثابة مصابيح معلقة بسقف غرفة الأرض. وأصل الزينة (الجمال) هو نور القرآن، الذي نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا التي زودها الله أيضًا بوسائل الحفظ (الحماية) التي تمنع مردة الشياطين على الأرض من الصعود لاستراق (اختلاس) السمع إلى أوامر الله النازلة من اللوح المحفوظ (الكتاب المبين) لتنفُذ على الأرض.

والتي تمنع مردة الشياطين من الاطلاع على القرآن الكريم من قبل أن يأمر الله بتنزيله.

فقوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ إشارة إلى نزول القرآن أول مرة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الأولى القريبة من الأرض.

﴿وَحِفْظًا﴾ معناه: وحفظناها من كل شيطان يريد أن يطلع على القرآن وعلى أوامر الله قبل أن يصدر الأمر الإلهي بتنزيلها على الأرض.

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى بناء السماوات السبع وإسكان النفوس فيها وتنزيل كتاب العلم الإلهي عليها.

﴿تَقْدِيرُ﴾: حساب وضبط. والمقصود بيان أن كل ما أشير إليه، إنما وقع بحساب دقيق وضبط لمقادير الأشياء حتى لا يختل البناء. وذلك التقدير الحكيم جدير بالله الخالق الموصوف بانه ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾: الذي لا يُكره على عمل شيء لا يريده فهو سبحانه وتعالى لا يُغلب ولا يُضطر إلى شيء فهو يعمل بمشيئته المطلقة من كل قيد، أعني باختياره الحر.

﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾: الذي يتبين جميع الأشياء، ظاهرها وباطنها؛ فلديه سبحانه وتعالى صورة صحيحة لكل شيء، أودعها في كتاب علمه «اللوح المحفوظ» قبل أن يخلق الأشياء. فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾: وبعد أن أتم إنزال كتاب علمه: اللوح المحفوظ، على السماوات السبع، صعد بروحه واعتلى واستقر فوق العرش - الذي خلقه قبل أن يخلق السماوات والأرض- ليراقب ويرعى من فوقه شئون مخلوقاته.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾: وأخضع الشمس والقمر وجعلهما في خدمة الإنسان الذي هو الغاية من خلق السماوات والأرض. فهو ثمرة شجرة المخلوقات الذي يجري كل شيء في السماوات والأرض من أجله.

﴿كُلٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾: كل ما في السماوات والأرض من مخلوقات يتحرك في الطريق الذي رسمه العلم الإلهي، أو خطة تقدير الله العزيز

العليم، حتى يأتي الموعد المعلوم المسجل في كتاب العلم الإلهي، فينفخ في الصور نفخة الصعق التي تُتم تدمير هذا الكون فيتوقف كل شيء عن الحركة استعدادًا لبناء الكون الجديد الذي يحل مكان هذا الكون.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ﴾: خرجوا من هذا الكون المشهود -الآن- (هذه السماوات وهذه الأرض) عندما يتم تدميرهما؛ ليلاقوا الله الوَاحِدِ القَهَّارِ.

﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾: الذي لا يتعدد فلا يوجد في الحقيقة غيره.

﴿ٱلْقَهَّارِ﴾: الذي يسترد من مخلوقاته الإرادة التي سبق أن منحها لهم من «روحه» عندما خلقهم (أخرجهم إلى الشهادة) من أجل ابتلائهم.

فهنالك عند نهاية الابتلاء بزاول الكون المشهودة، لا إرادة لأحد من المخلوقات لأن القهار قد استرد إرادته.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: ينفذ الإرادة الإلهية المودعة في كتاب علمه بإخراجها من الغيب إلى الشهادة أو في كلمة واحدة: ينفذ أمره المكتوب.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: يبسط ويوضح الدلائل على صفحة الكون، ليرشدكم إلى حضوره.

﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾: راجيًا أن يزول ارتيابكم في لقائه.

إذن اليقين بلقاء الله هو القضية الكبرى التي تحملها الرسالة الإلهية. شهود الله هو الغاية التي من أجلها أرسل الأنبياء.

۞ ۞ ۞

الإحسان الطريق إلى رؤية الله

(٩)

ولكن المحو التام للارتياب في لقاء الله لا يمكن الوصول إليه إلا بشهود الله في هذه الحياة الدنيا. فعندما تشهد (ترى) الله في هذه الحياة الدنيا، فإن "لقاء الله" في الآخرة يصبح "مشهودًا" لا تكتنفه الشكوك أي يصبح «حقًا» لا تخالطه الأوهام. ولذلك فإن عوام (عموم) المؤمنين لا يصلون إلى اليقين -الذي هو شهود الله- في هذه الحياة الدنيا؛ لأن موعدهم الآخرة.

قال الله سبحانه وتعالى في مطلع سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة: ١ - ٤].

الم: إشارة رمزية صوتية إلى كتاب العلم الإلهي الوح المحفوظ، الذي قلنا أنه نزلت منه نسخة في نهاية اليوم السادس من أيام الخلق وأعطيت اسم «الكتاب المبين».

والمقصود الإشارة إلى أن أصل (مصدر) القرآن الكريم هو كتاب العلم الإلهي (اللوح المحفوظ) كما أن الحروف هي أصل العلم البشري؛ لأنها أصل اللغة التي يكتب بها العلم.

ولم يترك القرآن موضع شك في صحة تأولينا هذا إذ بيَّن أن تلك الحروف (ألف. لام. ميم) تشير إلى الكتاب الذي أشار إليه باسم الإشارة "ذلك" وهو يشير إلى البعيد. ولم يشر القرآن في كامل نصه المحكم إلى نفسه إلا باسم الإشارة «هذا».

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩].

وانظر الآيتين: ١٥-٣٧ من سورة يونس، والآية: ٣ من سورة يوسف والآيات: ٩-٤١-٨٨-٨٩ من سورة الإسراء، والآية: ٥٤ من سورة الكهف، والآية: ٣٠ من سورة الفرقان، والآية ٧٦ من سورة النمل، والآية: ٥٨ من سورة الروم، والآية: ٣١ من سورة سبأ، والآية ٢٧ من سورة الزمر، والآية ٢٦ من سورة فصلت، والآية ٣١ من سورة الزخرف، والآية ٢١ من سورة الحشر.

في كل هذه المواضع يشير القرآن إلى نفسه باسم الإشارة «هذا» فلا يترك موضع شك في أن اسم الإشارة «ذلك» يشير إلى كتاب العلم الإلهي: اللوح المحفوظ الذي صار في السماء «الكتاب المبين».

ثم أنه وصف ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ بأنه ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾، ولقد ارتاب الكافرون والمنافقون والذين في قلوبهم مرض من المؤمنين في القرآن. فلا ينطبق هذا الوصف ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ إلا على اللوح المحفوظ؛ لأنه عندما يكشف الله عنه يوم القيامة لا يصبح -هنالك- ريب بل يقين.

﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾: إرشادًا للذين يطيعون الله طلبًا للوقاية من عذابه. فهم يمتثلون الأوامر ويجتنبون المناهي (المحظورات) من أجل وقاية (حماية) أنفسهم من عذاب الله. والهدى (الإرشاد) للمتقين يتضمن بيان الطريق الذي ينبغي أن يسيروا فيه وإعانتهم على السير.

ثم شرع يذكر صفات المتقين فقال:

١- ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾: الذي يؤمنون بالله؛ فلا شك في أن الله هو القضية الأولى والكبرى في الإيمان، فأول صفة للمتقين أنهم يؤمنون بالله. وسمى «الله» سبحانه وتعالى "غيبًا"؛ لأنهم لم يشهدوه. ولكنهم يصدقون كلامه الذي أوحاه لأنبيائه.

فهو سبحانه وتعالى -بالنسبة إليهم- "خبر صحيح" يصدقون

(يؤمنون) به بتصديق كلامه الذي جاءهم عن طريق النبي- الذي استمع الوحي (الرسالة الإلهية).

٢- ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: وينشأون ويبنون الصلة بالله من أجل الوصول إليه عبر التطهر والتوجه إليه بالذكر والركوع والسجود. إنهم بالصلاة يريدون الوصول إليه والاتصال به؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يزال بالنسبة إليهم «خبرًا صادقًا» لم يشهدوه بعد.

٣- ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: ويبذلون أموالهم لمن يحتاج إليها من خلق الله شكرًا لله على أن أغناهم. فهو يتقربون إلى الله بالإحسان إلى خلقه. اتصالهم بخلق الله عبر الإنفاق وسيلة للتواصل مع الله.

٤- ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: والذين يصدقون بالقرآن -وحي الله- إليك ويصدقون بوحي الله إلى الأنبياء السابقين. فهم يصدقون برسالة الله التي حملها إليهم رسل الله. فهذه الرسالة الإلهية (الخبر الإلهي) هي الواسطة بينهم وبين الله وعبر التصديق (الإيمان) بها يسيرون إلى الله ويتواصلون معه سبحانه وتعالى.

٥- ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: وعندما يحصلون على حياتهم الثانية الخالدة يوم القيامة، يحصلون على اليقين؛ إذ يرون الله سبحانه وتعالى؛ لأن ما كان غيبًا يصبح حينئذ مشهودًا. ومن ثم نعلم أن اليقين يعني شهادة ما كان غيبًا.

وقد أكد صحة التأويل الذي قدمناه بقوله: ﴿طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣﴾ [النمل: ١- ٣].

﴿طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١﴾: الحروف المقطعة التي تُنطق منفصلة عن بعضها تشير إلى آيات القرآن المسجلة في كتاب العلم الإلهي (اللوح المحفوظ) قبل تنزيلها للمرة الثانية على النبي ﷺ في حياته الدنيا.

﴿وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾: وكتاب يتحقق فيه اسم الكتاب؛ فهو مكتوب حقًا ومسجل على صفحاته الكلمات التي تحمل العلم الإلهي. وهو النسخة السماوية من اللوح المحفوظ.

﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾: هنا أضاف التبشير للمؤمنين كغاية لإنزال الوحي الإلهي.

والتبشير هو الإخبار بما يُنتظر تحققه من السرور. وذلك من باب تشجيع المؤمنين على المضى قدمًا على طريق الطاعة وتقويتهم على تحمل مشقة السفر إلى الله؛ بتوقع المكافأة الكبرى بدخول الجنة حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم.

ثم قال هنا: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣﴾.

ليبين خطأ من تأول قوله في سورة البقرة: ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة: ٤] على أن معناه مجرد تأكيد إيمانهم بالآخرة؛ لأن المقصود -كما بينا- أنهم يحصلون على اليقين (الشهود الذي يقطع الشكوك) بحصولهم على الحياة الآخرة الباقية يوم القيامة.

وقال: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ١- ٤].

﴿ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾: الذي أُحكم ضبط نصه؛ فلا يُزاد فيه، ولا يُنقص منه. إنه ليس في حاجة إلى إضافة ولا إلى أن يؤخذ منه؛ لأنه صدر من الله سبحانه وتعالى تام الاتقان.

هنا تكلم عن المحسنين وليس المؤمنين المتقين. فما هو الإحسان؟

هذا هو السؤال الذي سأله جبريل عليه السلام عندما تلبس بصورة رجل من البشر، وجلس إلى رسول الله ﷺ يسأله ليعلم الناس حقائق الديانة. فأجاب رسول الله ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

الحديث رقم ٢٧٦٣ في كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير" من إعداد الاستاذ محمد ناصر الدين الألباني. وقد أخرجه البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وأبي هريرة رضي الله عنه.

هنا انتقلنا إلى درجة أعلى من درجة المؤمنين المتقين. فإذا كان "المتقون" يعبدون الله للنجاة (الوقاية) من النار، فإن المحسنين يطلبون بعبادتهم "رؤية" الله.

أن تعبد الله كأنك تراه: أن تعبد الله متطلعًا بعبادتك إلى رؤية الله، ناظرًا إليه سبحانه وتعالى طالبًا رؤيته.

فإن أجاب الله طلب عبده "الخفي" للرؤية كشف له عن نفسه سبحانه وتعالى، فيتمكن العبد من رؤية ربه. وإن لم يتفضل الله جل جلاله على عبده بالكشف وقف العبد عند مقام الرجاء (التطلع)، مكتفيًا برؤية الله له، أعني بنظر الله إليه، الذي يمنحه الرحمة والثبات على الطريق.

قوله: **فإن لم تكن تراه**: أشار إلى إمكانية الرؤية، منحة من الله العليم الخبير بعباده. والمقصود: فإن لم تتمكن من رؤيته فاكتف بإيمانك أنه يراك (ينظر إليك) لتواصل السير على طريق الإحسان، حتى يتفضل عليك سبحانه وتعالى بالرؤية. والمقصود فلا تغضب ولا تسخط ولا تيأس بل اصبر وواصل العبادة واسجد واقترب حتى «ترى».

إذن المحسنون -الذين يطلبون رؤية الله- أعلى درجة من المتقين، لكنهم أقل درجة من الموقنين الذين تفضل الله عليهم بإجابة طلب

القلب للرؤية فإذا كان المتقون هم عوام (عموم) المؤمنين فإن المحسنين هم الخواص، والموقنون هم خواص الخواص: العارفون بالله.

وصف الله سبحانه وتعالى عبده المحسن الذي في طريقه إلى اليقين بقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٧ - ٢١].

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾: وسيُبعد ويُحمى من النار.

﴿ٱلْأَتْقَى﴾: الأكثر تقوى، وهو الأعلى درجة من التقى. لننظر إلى أنه قد استعمل صيغة الأفعل للتفضيل. إننا هنا في مقام «المحسن» الذي يعلو مقام التقى.

﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾: الذي ينفق ماله على من يحتاج إليه من عباد الله طلبًا للزكاة، أي طلبًا لرفع درجته عند الله؛ رغبة منه في زيادة قربه من الله؛ فإن لفظ الزكاة يدور معناه حول الزيادة (النمو) والعلو.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾: وهو ينفق ماله؛ ليس لرد جميل صنعه أحد من الخلق إليه؛ فهو لا يرد بإنفاقه على إحسان أحد من الخلق. فهو يعطي تفضلًا وليس مكافأة لنعمة أسداها أحد إليه.

فما الذي يبعثه على هذا الإحسان (الإنفاق)؟

والإجابة: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

إنه لا يفعل ذلك إلا طلبًا لرؤية الله. إن ابتغاء الوجه هو طلب الرؤية. فعندما تقول لمن تحبه: اعطني وجهك؛ فأنت تطلب رؤيته. وعندما يبتغي العبد وجه الله، فهو يطلب رؤية الله. إنه يعبد الله كأنه يراه، حتى يراه.

وعندما يختم الله السورة بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾. فقد أشار إلى أنه سيجيب طلب عبده. سوف يعطيه ما طلب وهو رؤية الله. إذن سيتمكن هذا العبد من رؤية الله ويصعد من درجة المحسنين إلى درجة الموقنين الذين يشهدون الله في هذه الحياة الدنيا قبل الآخرة.

لكن الابتغاء (الطلب) يكون لوجه الرب الأعلى، فما هو وجه الرب الأعلى؟

إنه "روح الله": أول الكائنات خروجًا من الغيب، والذي تولد من انبعاثه "النور" الذي كشف عن علم الله، والذي به تكون رؤية الله؛ فهو «وجه الله» الذي به نتعرف على الله سبحانه وتعالى كما نتعرف على الشخص برؤية صورته. إن الصورة ليست ذات (نفس) الشخص ولكنها الوسيلة التي نتعرف بها عليه. إنه ملكوت السماوات والأرض.

وقوله سبحانه وتعالى: "ولسوف" يدل على وجود تدرج وسير من أجل أن ينتقل العبد من مقام الإحسان إلى مقام اليقين.

ملكوت السماوات والأرض

(١٠)

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾: الواو أداة عطف تربط ما قبلها بما بعدها. وما كان قبلها في الآيات هو بطلان تعدد الآلهة وعبادة الأصنام. وما بعدها تمكين إبراهيم من رؤية ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

والمعنى: كما أرينا إبراهيم بطلان تعدد الآلهة وعبادة الأصنام. التي يعتبرها المشركون (الوثنيون) رموزًا محسوسة للآلهة، أخذنا نريه ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾. ولنلاحظ هنا الانتقال من صيغة الماضي إلى صيغة المضارع الحاضر "نُري" للدلالة على مرور الوقت اللازم للتدرج والصعود من الإحسان إلى اليقين.

ولفظ "الملكوت" مشتق من لفظ "المُلك" والمُلك" يعني التصرف في الأشياء المعبر عن امتلاكها.

والملكوت -إذن- هو السر الكامن وراء التصرف في الأشياء.

"السر" المحرك للأشياء بين الظهور والاختفاء، أي بين الشهادة والغيب أو الحضور والغياب.

ومن ثم نفهم أن ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو «روح الله» الذي يهب الأشياء باتصاله بها الحياة والحضور، وبانقطاعه عنها أو انفصالها عنه تموت وتغيب.

ورؤية ملكوت السماوات والأرض معناها إدراك أن "روح الله" هو السر الكامن المحرك للأشياء، وأن المخلوقات جميعًا إنما هي صور لحضور الله (سبحانه وتعالى) وخروجه -بواسطة روحه- من الغيب إلى الشهادة؛ فيصبح الله سبحانه وتعالى مشهودًا وليس غيبًا. وهذا هو معنى اليقين. ولذلك قال -بعد أن ذكر تمكين إبراهيم من رؤية ملكوت السماوات والأرض- "﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ الذين يشهدون الله في الدنيا ويرونه.

خاطب نبيه محمدًا ﷺ قائلًا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥-٤٦]

لم يدع الله نبيه هنا إلى رؤية ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ كما دعاه من قبل إلى رؤية ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل: ١] بل يدعوه هنا إلى

رؤية ربه ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ فالرؤية متوجهة إلى الرب. والسؤال "﴿أَلَمۡ تَرَ﴾؟" إنما هو دعوة وحث على الرؤية، كأنه قال له: حتى الآن لم تر!! فهو يدعوه إلى النظر إلى ربه ليراه كيف يمد الظل؟

الظل: الرسم على الأرض الذي يحدد صورة الشيء عند سقوط (نزول) النور عليه. فهو أثر نزول النور على الشيء. فلا ظل دون نور. وإذا غاب النور اختفى الظل.

والظل في الآية رمز إلى الخلق الذي لولا النور الذي انبعث من الله سبحانه وتعالى أولًا، ما ظهر ولبقيت الأشياء في ظلام (ليل) الغيب.

مدَّ: حرَّك. المد عكس السكون (انعدام الحركة) بدليل قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾.

لكن الله سبحانه وتعالى لم يشأ (لم يختر) السكون بل اختار مد الظل أي جعله متحركًا. فمن يقود حركة الظل؟ من يوجه الظل في حركته بالنهار؟

والإجابة: الشمس. الشمس هي التي تقود (توجه) حركة الظل، الذي يتبعها كما يتبع الجنود قائدهم، ويتبع المسافرين دليلهم ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ۝٤٥﴾.

دَلِيلًا: قائدًا يوجه السير. فالقائد (الدليل) في المقدمة يوجه حركة

الجنود من خلفه، والمعنى المباشر: ثم جعلنا الشمس قائدًا يوجه حركة الظل في النهار من مطلع الفجر حتى غروب الشمس ومجئ الليل (الظلام) حيث يختفي الظل.

ثم: إشارة إلى زمن النهار (وجود النور) والرمز إلى يوم الدنيا الذي ينتهي بقدوم الآخرة. حيث تدخل المخلوقات في ظلام الغيب مرة أخرى قبل أن تعود إلى الظهور في اليوم الآخر الذي هو الغد بالنسبة إلى يوم الدنيا.

والمقصود: انظر إلى ربك لتراه وهو يحرك المخلوقات على الأرض في نهار الدنيا، حتى تأتي لحظة النهاية بقدوم الليل عند غروب الشمس التي تقود الظل (المخلوقات) إلى الاختفاء عند غياب النور بإتمام الغروب وقدوم الليل. والإشارة هنا إلى نهاية يوم الدنيا.

لكن اختفاء الشمس والأشياء وراء ظلام (ستار) الليل لا يعني انعدامها؛ لأنها ستظهر في يوم جديد بشروق آخر للشمس أو بخروج النور مرة أخرى.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

وعند نهاية الدنيا، نجمع ونضم المخلوقات في يدينا فتختفي كما يختفي الظل بغروب الشمس وقدوم الليل (الظلام).

ولنلاحظ كيف انتقل السياق من صيغة المفرد ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ إلى صيغة الجمع الحاضر المتكلم بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾. وهي صيغة تجعل المخاطب الذي توجه إليه الكلام مشتركًا في العمل مع المتكلم. والإشارة إلى أن محمد ﷺ في حقيقته هو «روح الله» الذي سبق جميع المخلوقات في الظهور (الخروج من الغيب) وأن النور الذي انفجر من انبعاثه هو الذي كشف عن العلم الإلهي القديم الذي كان غارقًا في ظلام (ليل) الغيب. فهو ﷺ - في حقيقته- شمس الحقيقة التي أشرقت قديمًا من الغيب فظهرت المخلوقات، كما يظهر الظل على سطح الأرض عند شروق الشمس. ثم عندما يغرب ويعود إلى الغيب تختفي المخلوقات كاختفاء الظل بغروب الشمس.

وكما يكون اختفاء الظل عند الغروب وقدوم الليل شيئًا يسيرًا لا صعوبة فيه، كذلك يكون عودة جميع المخلوقات إلى القبضة الإلهية يوم القيامة شيئًا يسيرًا لا صعوبة فيه. ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤]

يوم القيامة هو اليوم الذي يطوي فيه الله السماء (الكون) كما يطوي الكاتب ﴿ٱلسِّجِلِّ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] الصحف (الكُتُبِ) المبسوطة أمامه عند

نهاية الإملاء والكتابة. فيعود هذا الكون المشهود كله، بسماواته وأرضه وما فيه من كائنات إلى الحالة (المادة) الأولى التي كان عليها عند بدء الخلق. تعود جميع الأشياء إلى "أول خلق"، وهو أول شيء تكون من النور الذي انفجر من انبعاث «روح الله» من الغيب معبرًا عن إرادة الله الكشف عن نفسه. هذه الإعادة وعد قطعناه على أنفسنا ونحن قادرون على أدائه (فعله).

والخلاصة أن اليقين يعني شهود أن جميع الأشياء ظهرت في النور الذي انفجر من انبعاث «روح الله» من الغيب وأن روح الله هو شمس الحقيقة وهو ملكوت السماوات والأرض.

ولذلك فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد أن أراه الله ملكوت السماوات والأرض وأصبح من الموقنين. ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء: ٥٦]

﴿فَطَرَهُنَّ﴾: كشف عنهن بإخراجهن من الغيب إلى الشهادة بالنور الذي تولد من انبعاث "روح الله" من الغيب.

﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُم﴾: إشارة إلى روح الله الذي كشف عن السماوات والأرض.

﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾: من الموقنين.

الله يطلب من عباده اليقين

(١١)

ولقد طلب سبحانه وتعالى من الناس جميعًا أن يتفكروا ويتساءلوا عن الشيء الذي خُلقوا منه. فإنهم لم يُخلقوا (يظهروا) من العدم بل من "شيء".

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]

هل ظهروا واكتسبوا كيانهم بدون شيء، أم أنهم خلقوا أنفسهم؟!

والإجابة الحاسمة لكل شك: لقد كان هنالك "شيء" خُلقوا منه. وذلك الشيء ينتسب وينتمي إلى الخالق.

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾

وإذا كانوا لا يستطيعون أن يزعموا أنهم قد خلقوا أنفسهم، فبالأحرى إنهم لم يخلقوا السماوات والأرض.

ولو علموا "الشيء" الذي خُلقوا منه لأصبحوا من الموقنين الشاهدين.

﴿بَل﴾: حرف يدل على وجوب ترك ما كان قبله والتهيوء لشيء

جديد بعده. فهو دعوة للصعود إلى معنى أو قضية جديدة أعلى مما كان من قبل.

ذكر هنا «اليقين» ولم يذكر الإيمان، فقال: ﴿لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾، ولم يقل: بل لا يؤمنون. فمعرفة الشيء الذي خُلقت منه منه المخلوقات هو «اليقين». إدراك أن "روح الله"هو ملكوت السماوات والأرض، وأن المخلوقات جميعًا ما هي إلا صور أو رسوم أو ظلال لانبعاث "نور الله" الذي كشف عن علم الله القديم. ومن ثم فإن المخلوقات جميعًا هي صور لحضور الله (خروجه من الغيب إلى الشهادة). وبذلك يصبح الله حقًا (مشهودًا) وليس غيبًا. وهذا هو اليقين.

(١٢)

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٣- ٢٤]

سأل فرعون موسى عن ماهية رب العالمين الذي قال موسى انه أرسله. و"العالمين" هم البشر. هم بنو الإنسان الذين خلق الله السماوات والأرض وكل ما فيهما من أجلهم. فهم الغاية من الخلق فأجابه موسى، هو: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، والمعنى: هو خالق السماوات والأرض وما يتحرك بينهما من الكائنات فإن المخلوقات جميعًا في حركة

دائمة بين السماوات والأرض صعودًا وهبوطًا.

ونحن البشر ننزل من السماء -من كتاب الله المبين- عندما تنفخ الملائكة الروح (سر الحياة) في أجنتنا ونحن في أرحام أمهاتنا. ثم تصعد أرواحنا عند الموت. وهكذا حركة دائمة بين السماء والأرض.

قوله ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ معناه: إن كنتم تعلمون وسيلة خلقكم، والشيء الذي خُلقتم منه وسر حياتكم لكان من الميسور عليكم أن تعرفوا أن رب العالمين هو رب السماوات والأرض وكل ما يتحرك بينهما من مخلوقات.

وخاطبنا الله سبحانه وتعالى بنفس الخطاب الذي أجاب به موسى عليه الصلاة والسلام عن سؤال فرعون.

قال الله سبحانه وتعالى لنا -نحن الذين أنزل علينا القرآن- واصفًا نفسه: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الدخان: ٧].

وقال: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الجاثية: ٣]

من المؤكد أن المؤمنين (الذين يصدقون برسالة الله) يجدون في السماوات والأرض براهين تدلهم على صحة رسالة الله سبحانه وتعالى وصدق النبي الذي أبلغها؛ مصداقًا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ

بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣]

﴿ٱلۡأٓفَاقِ﴾: ميادين العلم.

يؤكد الله سبحانه وتعالى أنه يتعهد بزيادة العلم الإنساني كلما تقدم الزمن حتى يجد الناس في ميادين العلم المختلفة (الآفاق) وفي بواطن أو قلوب (أنفسهم) الدلائل الكافية التي تبين لهم أن القرآن الكريم هو شهادة الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلۡحَقُّۗ﴾ التي تكلم بها؛ ليُعَرِّف نفسه لعباده ويهدي المؤمنين إلى الصراط المستقيم الذي يفضي بالسالك فيه إلى رحمة الله في الدنيا والآخرة. ذلك الوعد الإلهي يتحقق لمن يطلب الأدلة على صحة الوحي، وإن كانت شهادة الله سبحانه وتعالى بأن هذا القرآن كلامه تكفي المؤمنين، لأن الله جل جلاله عليم وحاضر ومراقب لكل شيء في السماوات والأرض.

ثم قال: ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الجاثية: ١٤]

هنا، عند الحديث عن الكائنات الحية (البشر والدواب) تكلم عن "اليقين"؛ لأن الكائنات الحية تدل على "روح الله" واهب الحياة.

و"روح الله" هو الذي يُمكِّن العباد من شهود الله. وهذا هو اليقين.

(١٣)

إن الله سبحانه وتعالى يحب لعباده أن يَصِلُوا إلى «اليقين» في الدنيا؛ لأنه يحب أن يكشف عن (يُعَرِّف) نفسه، ولم يخلق السماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات إلا ليُعرِّف نفسه.

ولكن أغلب الناس يصرون بكبرهم وعنادهم على العمى عن ربهم؛ بكفرهم برسالته التي أنزلها لهم لتكون طريقًا إلى اليقين عبر الإيمان. ولذلك فإنه سبحانه وتعالى يُنزِّل في بعض الأحيان آيات (دلائل مشهودة) لتقطع الشك في رسالته، ومن ثم تمنح "اليقين"، ولكن "الإيمان" حينذاك لا ينفع الإنسان؛ لأن الابتلاء (امتحان القلوب) يكون في الإيمان (التصديق) بالغيب. أما عند الكشف عن الغيب فإن الإيمان لا يكون مجديًا، مثل إيمان فرعون عند الغرق، أو إيمان العبد عند غرغرة الموت إذ ينكشف الغيب عند حضور الموت ويصبح ما كان غيبًا مشهودًا.

قال الله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢]

﴿ٱلْقَوْلُ﴾: أمر الله سبحانه وتعالى بإنهاء الحياة على وجه الأرض، أعني بقيام الساعة.

﴿وَقَعَ﴾: نزل من الله وتحقق (أصبح مشهودًا) ولم يعد غيبًا.

وقوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ معناه وإذا نزل عليهم الأمر الإلهي بإنهاء الحياة على كوكب الأرض وقيام الساعة.

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾: أظهرنا لهم حيوانًا -يدب على الأرض فهو دابة- يستطيع أن يكلمهم باللسان (باللغة) الذي يتكلمون به.

وهذه الدابة من علامات (أشراط) قرب الساعة وهي من العلامات المتأخرة التي تنذر بأن الساعة (نهاية الدنيا) باتت وشيكة جدًا. فهي من الآيات (الأشراط) التي تعلن قرب الساعة وتجليها كما قال الله سبحانه وتعالى واصفًا نفسه:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧]

﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾: متى تقع. فإنها تسير وتتقدم في طريقها من الغيب -حيث كتبت في الكتاب المبين- إلى الشهادة حيث تقع على الأرض أحداثها، وتصبح مشهودة لا مجال للشك أو الإيمان بها..

فإنها حينذاك تكون "يقينًا" لا تكتنفه الشكوك ولا تخالطه الأوهام.

﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾: إنما بيانها عند ربي في كتاب العلم الإلهي حيث سطرت أحداثها قبل أن يخلق الكون بخمسين ألف سنة.

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾: لا يظهرها ظهورًا لإخفاء ولا لبس فيه عند حلول زمن حدوثها إلا الله سبحانه وتعالى، فهو الآمر بنزولها القادر المقتدر عليها.

القادر: الذي يبدأها أي يضع بدايتها.

المقتدر: الذي ينهيها أي يضع نهايتها. فهو الضابط لها.

﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: يثقل على السماوات والأرض حمل أحداثها. فإن أحداثها شديدة تنذر بتحطم وتهاوي بنيان الكون. إنها بداية النهاية.

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾: لا تصبح مشهودة إلا على حين فجأة على غير توقع من سكان الأرض حينها ولا انتظار منهم. إنها تقع عليهم وهم غافلون عنها لا يتوقعونها ولا ينتظرونها.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: يسألونك عن موعدها كما لو كنت أنت المسئول عنها المدبر لأمرها. رغم أنها من الأمور التي انفرد بها الله سبحانه وتعالى بعلمها ولم يُطلع عليها أحدًا من خلقه..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾

[لقمان: ٣٤]

ولذلك فإن جبريل عليه السلام لما تلبس بصورة البشر وسأل رسول الله ﷺ عن الساعة فأجابه النبي ﷺ: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**» ولكنه أعطى بعض العلامات (الأشراط) التي تنذر بقربها. ومن الآيات التي تدل على شدة قربها الدابة التي تكلم الناس بلسان عربي مبين. وأعتقد أن هذه الدابة ستكون أسدًا، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك - في رأيي- بقوله واصفًا موقف كفار قريش من دعوة النبي محمد ﷺ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر: ٤٩- ٥١]

﴿ٱلتَّذْكِرَةِ﴾: الدعوة إلى تذكر علم الله القديم الباطن في النفوس؛ فإن رسالة (وحي) الله التي يحملها النبي ليست -في حقيقتها- إلا دعوة لتذكر حياتنا القديمة عند الله قبل الخلق وتذكر (استعادة العلم بـ) كلام الله الباطن (الكامن) في نفوسنا. وقد تضافرت الآيات في بيان هذه الحقيقة التي يغفل عنها أغلب الناس حتى عوام (عموم) المؤمنين.

﴿مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾: رافضين الدعوة نافرين منها.

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾﴾: كأنهم جماعة من الحمير قد أفزعها واستفزها للهرب ظهور أسد يريد أن يلتهم بعضها ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾.

ويكون موضع ظهور الدابة هو مكة المكرمة التي شهدت بدء نزول

القرآن؛ ليكون ظهورها في نفس المكان دلالة على صدق النبي ﷺ الذي أخبر عن نهاية الدنيا وقيام الساعة. وهذه الدابة من آيات (أشراط) قربها. لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يمحو الشكوك في صحة رسالته فأخرج الدابة لتكلم الناس برسالة الله التي كان يكلمهم بها رسل الله.

إن تلك الدابة ستكون رسول الله إلى الناس لتذكرهم بوعده ووعيده وتبشرهم وتنذرهم، بعد أن أعرضوا عن رسل الله من البشر.

فإذا كان الناس يتهمون رسل الله من البشر بأنهم يفترون على الله الكذب، وينسبون إليه سبحانه وتعالى كلامًا هم الذين ألفوه وزوروه. وإذا كانوا يتهمون رسل الله بأنهم سحرة أو مسحورون أو بانهم شعراء أو مجانين؛ فهل يمكن اتهام دابة (أسد أو قسورة) بالكذب أو السحر أو الشعر أو الجنون؟!

كلا. لا يمكن عقلًا اتهام الدابة بأي من الاتهامات السابقة. ومن ثم تصبح رسالة الله حقًا مشهودًا أي يقينًا لا شك فيه.

ولذلك نفهم فإن الباعث الذي جعل الله سبحانه وتعالى يبعث الدابة رسولًا هو أن الناس أصروا على الكفر (التكذيب) بالرسالة الإلهية (الخبر الإلهي) ورفضوا الإيمان (التصديق) واستندوا في كفرهم على شكوك، فأراد الله سبحانه وتعالى محو تلك الشكوك، ليصل بهم إلى

اليقين. ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾: يعجزون عن محو الشكوك بسبب كفرهم. ولو أنهم آمنوا لكان الإيمان طريقًا للوصول إلى اليقين.

ولكن الإيمان (التصديق) بعد ظهور الآية التي تجعل الغيب مشهودًا لا ينفع العبد، إذ لا موضع للابتلاء (امتحان القلوب).

قال رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: الدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ، وطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا**».

الحديث رقم ٣٠٢٣ في كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير من إعداد الاستاذ/ محمد ناصر الدين الألباني. وقد أخرج الحديث الإمام مسلم في صحيحه والترمذي في سننه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]: عملت صالحًا يوجبه إيمانها.

ومعنى الحديث النبوي أن كثيرًا من الناس لا يصدقون بخروج المسيح الدجال ولا خروج الدابة التي تكلم الناس ولا طلوع (شروق) الشمس من مغربها حتى الذين يعلنون الإيمان وتبقى الشكوك في قلوبهم، رغم حديث القرآن الكريم ورسول الله ﷺ عن هذه الآيات.

فإذا ظهرت أي أصبحت مشهودة، فإن الذين كانوا يكذبون (يكفرون) قبل أن تظهر، أو الذين كان لا يحثهم الإيمان على عمل الصالحات، فكان إيمانهم مُعطلًا، بلا أثر فعلي، مجرد كلمات باللسان لا يصدقها العمل... هؤلاء الجماعتان لا ينفعهم الإيمان أو المبادرة إلى العمل الصالح (كسب الخير) عند ظهور الآيات؛ لأن الابتلاء في التصديق بالغيب والعمل بموجب الإيمان.

۞ ۞ ۞

رحلة الروح بعد الموت

(١٤)

وكان رسول الله ﷺ قد قال هذا الحديث تفسيرًا لقول الله: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ الذي ورد في الآية القرآنية التي يقول نصها:

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾ [الأنعام: ١٥٨]

ينكر الله سبحانه وتعالى على الكافرين تقاعسهم عن الإيمان برسالته فيقول: هل ينتظرون أن يؤمنوا إلى:

١ - ﴿أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٢ - ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾

٣ - ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾

وقد فسر رسول الله ﷺ المقصود ببعض آيات ربك. أما مجيء الملائكة فيكون عند حضور ملك الموت. إذ عندما تخرج النفس من الجسد، يحملها الروح (سر الحياة)، فإن الإنسان يستطيع أن يرى الملائكة ويطلع على الغيب الذي كان مستورًا عنه أثناء الابتلاء قبل الموت؛ لأن روح الإنسان ملك من الملائكة يستطيع أن يرى الملائكة (رسل الله السماوية) ويخاطبهم ويعقل خطابهم.

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ** يعني عند احتضاره أو حضور الموت. **نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّةِ** (ثوب من أثواب الجنة) **وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الجَنَّةِ** (سائل عطري من الجنة) **حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ**.

والمعنى: إنه يرى الملائكة يحتشدون عنده حتى نهاية بصره (الأفق).

ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ (المكلف بنزع نفسه من جسده) **حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي** -يعني من الجسد- **إِلَى**

مَغْفِرَةٍ مِنَ الله وَرِضْوَانٍ. فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ القَطْرَةُ مِنْ فِي (فم) **السقاء** (وعاء الماء).

فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا -إلى السماء- **فَلَا يَمُرُّونَ يَعْنِي بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنَ المَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا.**

علينا أن نلاحظ هنا انتقال الصياغة من لفظ "النفس" المؤنث إلى لفظ "الروح" المذكر (**مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ**)، واالإشارة إلى أن النفس عندما تخرج من الجسد، فإن الروح هو الذي يحملها بصحبة أخوانه من الملائكة.

حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا (السماء الأولى القريبة من الأرض) **فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ** (يطلبون من حراس السماء الأولى أن يفتحوا له الأبواب) **فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ.**

علينا أن نلاحظ أن عباد الله المقربين الذين أنعم الله عليهم يحيون في السماوات ويقومون بتوديع الروح الصاعد بالنفس إلى السماء التي تليها. أليست هذه رحلة المعراج التي قام بها رسول الله ﷺ ؟!

فيَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى.

كِتَابَ عَبْدِي: نفس عبدي، لأن النفس كلمة من كلمات الله، وكانت مكتوبة في كتاب العلم الإلهي قبل خلقها وخلق السماوات والأرض، فالنفس مكتوبة في كتاب العلم الإلهي فهي كتاب؛ لأن لفظ الكتاب يُطلق على المكتوب أي الكلمة المكتوبة.

هنا عندما يقول الله: **اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي** يحدث الموت الذي يعني انفصال النفس عن الروح (سر الحياة) فتحبس النفس في كتاب الله أو بالأحرى ترجع إليه. ويعود «الروح» الذي فارقها إلى الأرض فالذي يُعاد إلى الأرض هو الروح بعد فراق (طلاق) النفس.

ولم يترك رسول الله ﷺ ظلًا من شك في هذا الفهم (التأويل) إذ واصل حديثه قائلًا: **فَتُعَادُ رُوحُهُ**. والأحرى أن يُقال: فيُعاد روحه ولكن هذه الصياغة "فتعاد روحه" جاءت من وهم الرواة الذين كانوا لا يفرقون بين النفس والروح على خلاف النص القرآني وحديث رسول الله ﷺ.

إذن قد عاد «الروح» إلى الأرض. فأين يذهب؟ والإجابة إلى الجسد الذي دُفن في التراب، ولكنه لا يستطيع أن يدخل في الجسد إلا إذا أمره

الله بحمل النفس -التي حُبست في كتاب العلم الإلهي- إلى الجسد. وذلك لا يحدث إلا عند قيام الساعة وبعث من في القبور. فيقترب الروح من جسده المدفون في القبر دون أن يدخله.

أي يدخل "فيخ"؛ لأن ذلك الدخول يكون عند البعث من القبور بعودة النفس للنزول في الجسد بقوة الروح (سر الحياة) عندما يأمره الله بإعادة الحياة إلى الجسد.

لكن الروح (سر الحياة) -وهو الملك أو الكائن السماوي النوراني- يتصل بالنفس بعد الموت خارج الجسد، اتصالًا يشبه حال النائم في الحياة الدنيا الذي "]رى" الرؤى، عندما تتحرر نفسه تحررًا جزئيًا من قبضة الجسد.

فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَيَقُولُ: رَبِّيَ الله،

فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلَامُ،

فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟

فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ الله،

فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ (يعني: وما دليلك على صحة ما تقول أي ما الذي علمك ما تقول)

فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ الله، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ.

هنا حياة الإنسان بعد الموت تشبه تمامًا حياة النائم في الدنيا. فإن النائم يستطيع في الرؤيا أن يتكلم ويجلس ويقوم ويفرح ويحزن ويتنعم ويتألم. وكل ذلك حقًا وليس وهمًا باطلًا.

فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا (سعتها وراحتها) **وَطِيبِهَا** (عطرها)**، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ** (الرائحة)**، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ.**

هَذَا: إشارة إلى يوم القيامة وما فيه من نعيم للمؤمن. واستعمال اسم الإشارة "هذا" الذي يستعمل في الإشارة إلى الشيء القريب يدل على أن "روح" المؤمن -الذي ماتت أو أخذت منه نفسه- يقترب من الجنة ويستطيع أن يراها ويقوم على أبوابها.

فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالخَيْرِ.

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ.

فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي.

إذن، "روح" المؤمن الذي أُخذت منه نفسه وجُعلت في الكتاب

يتمتع بشيء من نعيم الجنة وهو في البرزخ (المعبر) القائم بين الدنيا والآخرة والجسد مدفون في التراب. وهو عندما يطلب ويدعو الله بقيام الساعة، فهو يريد أن يعود إلى نفسه، لتتم حياته أي تصل إلى غايتها. والأمر يشبه كما قلنا أن يحيا النائم في رؤيا سعيدة يتمتع روحيًا بما فيها من مباهج. ثم عندما يستيقظ وتعود إليه نفسه، يجد المباهج أمامه قد تحققت في اليقظة، فيتم نعيمه.

إذن "أرواح" المؤمنين على أبواب الجنة يُعاينون ما فيها من نعيم ويرون أنفسهم في عليين أما "المقربون السابقون" فإنهم بعد الموت يدخلون الجنة حقًا ويرجعون إلى أنفسهم فعلًا ويحيون خارج الجسد في جنات النعيم بالسماوات وهم الذين يودعون "روح الإنسان" بعد موته في معراجه من سماء إلى سماء -كما بيَّن الحديث- حتى يصل السماء السابعة فيلقى ربه ويعرف مصيره.

انظر إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤]

فالسبب وراء اعتبارهم أمواتًا هوعدم شعورنا -نحن الذين لم نزل في الابتلاء محبوسين في قفص الجسد- بحياتهم.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ [آل عمران: ١٦٩- ١٧١]

فالشهداء الذين قتلوا في سبيل الله.

﴿يُرْزَقُونَ﴾: يأكلون من ثمار الجنة.

﴿فَرِحِينَ﴾ بما منحهم الله من زيادة كرمه.

﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: يبشرون. يقدمون البشرى للذين لم يلحقوا بهم من المؤمنين الذين ما زالوا في الابتلاء على الطريق إليهم لم يصلوا بعد.

بماذا يبشرونهم؟ ماذا يقولون لهم في البشرى؟

لا تخافوا ولا تحزنوا.

لا تخافوا مما ينتظركم بعد الموت، فإن مصيركم الجنة حيث النعيم من الرحمن الرحيم.

ولا تحزنوا على ما فاتكم من نعم الدنيا، فإن نعيم الآخرة خير وأبقى.

يبشرونهم بمحبة (بنعمة) من الله وزيادة إحسان (وفضل) ويُطمئنونهم أن أجرهم على أعمالهم الصالحة لن يطيع لأن الله ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

ونعود إلى حديث رسول الله...

«وَإِنَّ العَبْدَ الكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ، مَعَهُمْ المُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ الله وَغَضَبٍ؛ فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ».

والمقصود أن النفس تفر من ملك الموت المكلف بانتزاعها فكأنها تتبعثر في أرجاء الجسد، لكن ملك الموت يتمكن منها بأمر الله له بانتزاعها، كما يُنتزع سيخ الحديد ذو الأشواك من لفات متشابكة من الصوف المبلول. والتعبير كناية أو رمز إلى شدة انتزاع نفس الكافر التي قضي عليها بالموت من الجسد.

«فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ (جثة ميتة) وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنَ المَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ.

ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله الآيـة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٤٠]

﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ٤٠]: ووجدوا أنفسهم أكبر من الإذعان لها والخضوع لمقتضاها.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٤٠]

ذا: اسم إشارة.

والكاف الأولى للتشبيه. والكاف الثانية خطاب للنبي محمد ﷺ.

والمعني: إن ما سبق من وصف في الآية تمثيل أو تصوير بالألفاظ لجزاء المجرمين عند ربهم.

والإشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى قد أرى نبيه جزاء المجرمين الذي وصفته الآية بالكلمات. والحديث النبوي الذي نحن بصدده برهان على أنه ﷺ قد عاين مصير الأرواح بعد الموت.

والمجرمون هم الكافرون الذين يحاربون ويضطهدون المؤمنين. فهم لا يكتفون بكفرهم وعصيانهم، بل يحاولون إكراه غيرهم على الكفر والعصيان.

۞ ۞ ۞

فَيَقُولُ الله ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا. فَتُعَادُ (فيُعاد) رُوحُهُ فِي (إلى) جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ،

فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي.

فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟

فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي.

فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟

فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي.

فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ عبدي فَافْرِشُوه مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ.

وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ.

(هذا: إشارة إلى يوم القيامة وما فيه من عذاب أعد له وهو يرى نفسه المحبوسة في سجين)

فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ.

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ.

فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمْ السَّاعَةَ.»

يبين لنا هذا الحديث النبوي -الذي رواه البراء بن عازب رضي الله عنه، وأخرجه أحمد بن حنبل، وأبو داود، والحاكم، وابن خزيمة والبيهقي في شعب الإيمان كما ذكر الاستاذ/ محمد ناصر الدين الألباني في تخريجه للحديث الذي أورده في صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير تحت رقم ١٦٧٦ - أن الميت عند الاحتضار (حضور الموت) يُكشف له الغيب ويصبح مشهودًا. وهذه هي الحقيقة التي جاءت في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]

السكرة: اضطراب واختلال الفكر.

﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: اضطراب واختلال الفكر نتيجة خروج الفؤاد (العقل الذي هو نواة أو مركز النفس) من شهادة الحياة الدنيا إلى شهادة الحياة الآخرة. أو بكلمات أخرى: الاضطراب والاختلال الفكرى نتيجة شهود ما كان غيبًا أثناء الابتلاء. إذ يرى الذي حضره الموت الملائكة، ويصعد روحه إلى السماء، ويمثل بين يدي الله، ويسمع كلام الله الذي يحدد مصيره.

﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾: شهادة الله. فالله سبحانه وتعالى هو الحاضر المشهود الذي لا يكتنف حضوره شك. وسكرة الموت تأتي يتلك الشهادة.

فيكون مثول الإنسان بعد الموت بين يدي ربه مثل مثوله يوم القيامة وهو اليوم الذي وصفه القرآن بأنه اليوم الذي يأتي فيه الله.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾ [البقرة: ٢١٠]

هنالك لا يكون شك.

عندما مات "عثمان بن مظعون" رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله: «**أما عثمان فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير. والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي**»

ذكر المفسرون -مثل القرطبي- هذا الحديث عند تفسير قوله سبحانه وتعالى " ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]

فوهموا أن "اليقين" هو الموت فأوَّلوا الآية بمعنى: اعبد ربك حتى يأتيك الموت أي اعبد ربك ما دمت حيًا إلى أن تموت.

وليس ذلك المقصود من قول رسول الله ﷺ عن عثمان. بل المقصود أن الموت يأتي باليقين كما قال القرآن: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾. وأن النفس التي تخرج من الجسد يحملها الروح عند الموت

تعاين الغيب وتشهده، أي يصبح ما كان غيبًا مشهودًا لها.

وهذا هو «اليقين».

قال الله سبحانه وتعالى آمرًا نبيه ﷺ: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١١- ١٢]

﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾: الرسول السماوي الذي يرسله الله ليخرج النفوس من الاجساد.

﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾: الذي كُلف بنزع نفس كل واحد منكم. وعلينا هنا أن نكشف خطأ صار أسطورة شائعة في التراث الإسلامي، ألا وهي توهم أن ملك الموت واحد لكل الخلائق ومن بينهم البشر. ولكن الحق أن لكل نفس من المكلفين (الإنس والجن) ملك موكل (مكلف) بإماتتها. فملائكة الموت كثيرون ولكنهم يعملون تحت رئاسة "إسرافيل" وهو الملك المقرب المكلف بالنفخ في الصور يوم القيامة لإتمام تدمير هذا الكون المشهود.

﴿ثُمَّ﴾: إشارة إلى الزمن الذي تقطعه النفس في البرزخ، وهو المعبر بين لحظة الموت حتى قيام الساعة وبعث من في القبور ثم القيام بين يدي الله.

﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾: تعودون إلى القيام بين يدي ربكم للحساب وأخذ الكتاب (صحيفة الأعمال) الذي فيه الجزاء.

وقوله: ﴿تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ معناه أننا كنا عند الله قبل الخلق وقبل ولادتنا من أرحام أمهاتنا. فنحن قد جئنا من عنده وإليه نرجع.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾: ولو أمكنك أن ترى وأنت لم تزل في حياة الابتلاء.

ماذا سترى؟

سترى المجرمين ناكسي رؤوسهم وهم قيام بين يدي ربهم يقولون: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾.

هذه هي المرة الوحيد في القرآن الكريم التي يسبق فيها البصر السمع. ففي كامل النص القرآني يأتي دائمًا السمع قبل البصر في مثل قوله:

١ - ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس: ٣١]

٢ - ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]

الأفئدة: العقول.

٣ - ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]

٤ - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون: ٧٨]

٥ - ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [السجدة: ٩].

٦ - ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣].

في كل هذه المواضع سبق السمع البصر، وربما كانت الإشارة العلمية في هذا الترتيب أن السمع يسبق البصر في نمو وتطور الكائن البشري. فالإنسان يولد بكامل قوة سمعه، ولكن البصر ينمو ويتطور شيئًا فشيئًا.

ولكن في الآية ٢٠ من سورة هود يصف الله الكافرين المعاندين بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴾ [هود: ٢٠].

هنا أيضًا سبق السمع البصر، ولكن لدلالة أخرى. وهي أن الطريق إلى اليقين (شهادة الغيب وزوال الشكوك) يكون بالاستماع إلى وحي الله أولًا والإيمان به الذي يُمَكِّن من رؤية الغيب.

أما في سورة السجدة التي تصف قيام المجرمين عند ربهم، فإن النور يسبق. ومن ثم فإن البصر يرى (يشهد) ما كان غيبًا ومن ثم تمحى

الشكوك وتزال الأكنة (الأغلفة) التي كانت -في الدنيا عند الابتلاء- تمنع من الاستماع والفقه وتثقل السمع. والتي أشار الله سبحانه وتعالى إليها في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٢٥]

لقد حُرموا من الاستماع والفقه وأصاب آذانهم وقرٌ (ثقل) أولًا فامتنع عليهم رؤية الآيات الدالة على صحة الرسالة وصدق الرسول.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦]

مرة أخرى عجزوا عن الاستماع والفقه فعجزوا عن الرؤية.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: ٥٧]

أما عند القيام بين يدي الله فإن البصر يسبق السمع؛ لأن نور الحضور يمحو الأكنة حول القلوب والوقر في الآذان.

هنا -عند الوقوف بين يدي الله- يقولون: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

كيف نحصل على اليقين

(١٥)

إذن فما معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

حَتَّى هنا غائية وليست ظرفية كما توهم المفسرون، فهي تبين الغاية الواجب على المتعبد أن يصل إليها، ولا تضع حدًا زمنيًا للتوقف عن العبادة. والمقصود: اجعل «اليقين» هو الغاية من عبادتك.

واليقين -كما بيَّنَّا- هو شهود الله في هذه الدنيا. هو رؤية الله سبحانه وتعالى. إذن فالآية تأمر بالإحسان الذي وصفه رسول الله ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

فما هو الطريق إلى اليقين؟ أو كيف نحصل على اليقين؟

والإجابة من الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾ [الجاثية: ٢٠]

﴿هَٰذَا﴾: إشارة إلى القرآن: وحيه الله إلى نبيه الأمي ﷺ

﴿بَصَٰٓئِرُ﴾: نور ترون (تبصرون) به.

فقد قال: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام: ١٠٤].

يبين أن "بصائر" يعني: نورًا؛ لأنه أوضح أن نتيجة أو ثمرة البصائر إما البصر (القدرة على الرؤية) أو العمى (العجز عن الرؤية).

والرؤية تقع بوصول النور (البصائر) إلى الأبصار (العيون) والعمى يحدث عندما لا يصل النور إلى الأبصار أو تعجز الأبصار (العيون) عن الاستجابة للنور.

وقال على لسان موسى (عليه الصلاة والسلام) موبخًا فرعون لعناده: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢]

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: الآيات التسع التي أظهرها (أنزلها) الله إلى فرعون وملئه وقومه ليكشف لهم عن نفسه سبحانه وتعالى، ويبين لهم أنه خالق السماوات والأرض المتصرف (الملك) الذي يحرك الأشياء بإرادته وحده، فتكشف عن أسماء الله سبحانه وتعالى.

﴿بَصَآئِرَ﴾: نورًا ترى به الحقيقة؛ نورًا ترى به ربك.

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ ويغلب على عقلي أنك يا فرعون هالكٌ بغضب الله عليك في الدنيا والآخرة. وكان ذلك القول في

آخر حوار دار بين موسى عليه الصلاة والسلام وفرعون الذي أغرقه الله مع جيشه.

وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص: ٤٣]

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراة.

﴿ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾: الأمم السابقة التي كانت قبل طوفان نوح.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾: نورًا يكشف للناس عن ربهم.

﴿وَهُدًى﴾: وبيانًا للطريق المستقيم الذي ينبغي لهم أن يسيروا فيه ليصلوا إلى ربهم.

﴿وَرَحْمَةً﴾: وعطاءً منا يساعدهم على بلوغ الكمال المستحق لهم باعتبارهم "صورًا" لروح الله الذي حصلوا على حياتهم بنفخة منه.

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ بالكتاب الذي أنزلناه حياتهم القديمة عندما كانوا عند الله قبل خلق السماوات والأرض.

وقال: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٣]

يخاطب نبيه ﷺ قائلًا: وعندما لا تقدم لهم الآية التي يطلبونها فإنهم يقولون لك على سبيل الاستهزاء والكفر بك؛ لم لا ترتجلها وتخترعها.

كأنهم يقولون له: ألست أنت المتكلم بهذا القرآن؟ فلم تعجز عن أن تحدثنا بالآية التي نطلبها؟!!

فرد عليهم قائلًا: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيٓ﴾، فأنا لا أقول القرآن من تلقاء نفسي.

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

هنا يبين أن الهداية والرحمة في القرآن لا ينتفع بهما إلا الذين يؤمنون (يصدقون) به أما الذين يكفرون (يكذبون) به، فهو عليهم عمى.

ولما كان الإيمان -كما بيَّنا- هو الطريق إلى اليقين فقال: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية: ٢٠].

واليقين -كما بيَّنا بما لا مزيد عليه- هو شهادة الغيب. ولقد بيَّن الله سبحانه وتعالى أن القرآن يكشف الغيب ويجعله مشهودًا، قال في وصف القرآن الكريم: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [التكوير: ٢٤].

ولا يكتم القرآن الغيب ويمتنع عن كشفه؛ بل هو يبذله لكل من يطلبه. فمن يطلب شهود الغيب من القرآن، فإن القرآن كريم يعطيه إياه. وشهود الغيب هو اليقين. ولذلك قال في حق القرآن أنه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٢].

(١٦)

فكيف يمنح القرآن اليقين لمن يؤمن به؟

أولاً: العلم. بدراسة القرآن دراسة علمية باعتباره رسالة من الله سبحانه وتعالى إلى العبد شخصيًا يطلب منه أن يقرأها لتكون نورًا يرى به ربه. إن العبد الباحث عن اليقين يعتقد اعتقادًا جازمًا لاشك فيه أن القرآن هو وسيلته إلى رؤية الله (شهود الغيب). ولذلك فإنه يديم التفكر -وهو الاستدلال بالآيات على الله- ويطيل التدبر في النص القرآني معتقدًا اعتقادًا جازمًا أن وراء كل كلمة بل كل حرف علم (بيان) وسر (حكمة)، ولا يقرأ القرآن لمجرد نيل الثواب كما يفعل العوام ولا يصنع مثل المفسرين الذي وقفوا على ظاهر الآيات وافتقدوا "الرؤية الشاملة" للنص الحكيم وظنوا أن في القرآن مترادفات (كلمات متعددة تعطي نفس المعنى) وحروف زائدة لا مفهوم لها!! ولم يحصلوا على القدر الكافي من العلوم البشرية التي تؤهلهم لإدراك ما في القرآن الكريم من علم واسع عميق محيط بأدق التفاصيل في شتى آفاق المعرفة، مصداقًا لقوله سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾: يعلموا أن القرآن يحمل وينزل بعلم الله

الذي لا يشوبه أدنى خطأ فهو الصواب التام.

والعلم يعني امتلاك الدليل. ومن ثم فإن إرادة الله تمكين البشر من رؤية الأدلة على صحة النص القرآني في آفاق العلوم البشرية وتجارب الناس يعطي الباحثين عن اليقين أول الطريق لرؤية الله من خلال القرآن.

قال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: العقائد والشرائع التي ترفض ما جاء في الوحي الإلهي، وتعتمد ما وصل إليه البشر بعلمهم الناقص الذي تخالطه الأوهام وتمليه الأهواء.

يتساءل القرآن على سبيل الذم والإنكار (الرفض): هل يطلبون الاحتكام إلى العقائد والشرائع التي ابتدعوها بأوهامهم وأهوائهم ويرفضون الاحتكام إلى رسالة (وحي) الله.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

ومن أكثر حكمة من الله ليصدر حكمًا خيرًا من حكم الله سبحانه وتعالى والله هو العليم الذي أحاط علمه بكل شيء، وهو الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، وهو العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة.

والحكمة هي جماع العلم والرحمة والعدل. ولذلك تساءل في آية أخرى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين: ٨].

يعلم هذه الحقيقة الذين يوقنون.

فأشار بذلك إلى أن القوم الذين يوقنون هم الذين درسوا العقائد والشرائع المختلفة فعلموا أن حكم الله هو "الأحسن"!

إذن، فالموقنون هم العلماء. والعلم هو أول طريق اليقين.

(١٧)

ثانيًا: الصبر.

والصبر هو الإذعان لحكم الله الذي تكرهه النفس مع كف اللسان عن الشكوى (إعلان التضرر). وأصل لفظ الصبر يعني الحبس، فأصبح معني الصبر: حبس اللسان عن الشكوى من أحكام الله الشرعية والقدرية التي تكرهها النفس البشرية.

وقد ربط الله سبحانه وتعالى بين الصبر واليقين في قوله عن الهداة المهديين من بني إسرائيل:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

يبين بهذا القول الحكيم أن الصبر مقدمة ضرورية لنيل اليقين. فتحقق العبد في مقام الصبر يمهد له الحصول على اليقين الذي من المحال أن يظفر به من يشكو من أحكام الله.

﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾: وكانوا يشهدون صدور الآيات من الله دون أدنى شك، فقد زالت من قلوبهم الشكوك " ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾.

وقال مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٦٠].

﴿فَٱصْبِرْ﴾: فأمسك لسانك عن الشكوى مما حكم الله به عليك مما تكره.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ لك بالنصر على أعدائك والتمكين لدينك في الأرض ولقاء الله ﴿حَقٌّ ۖ﴾: مشهود آت لا ريب فيه، ولكن قد يتأخر الوفاء به، لحكمة يعلمها الله الحكيم الخبير ﴿فَٱصْبِرْ﴾ ولا تتعجل.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾: ولا تجعل الذين تخالط قلوبهم الشكوك يتمكنون من إدخال الشك في قلبك في تحقق وعد الله لك بالنصر والتمكين ولقاء الله. لا تمكنهم من تشكيكك في وعد الله.

والاستخفاف أن ترى الشيء خفيفًا يسهل حمله على ما يُراد به.

قال الله سبحانه وتعالى في حق فرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤].

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾: رأى شعبه خفيف العقول، يُسهل حملهم على ما يُراد منهم دون أن يعترضوا أو يقاوموا. وبكلمات أخرى: رأى الناس أقل شأنًا وأدنى مرتبة من أن يناقشوا ما يأمرهم به أو يرفضوه. فأمرهم بكل ما يهوى.

﴿فَأَطَاعُوهُۚ﴾.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾: منافقين، يُظهرون ما لا يبطنون فيعلنون الرضى وهم ساخطون. ويتوددون وهم كارهون.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧]

إذن فقد أوضح أن الذين لا يوقنون يشكون في تحقق وعد الله؛ لأنهم لا يصبرون ويتعجلون. وأمره بالصبر (الثبات) على حكم الله حتى لا يمكنهم من تشكيكه، وبين له أن الثبات على الطريق المستقيم ثمرة الصبر. ومن ثم فإن الصبر هو الطريق إلى الوصول إلى اليقين (شهود وعد الله).

(١٨)

ثالثًا: ذكر الله

من أسماء الله سبحانه وتعالى: "الحق". ومعناه: الحاضر المشهود الذي لا يكتنف حضوره شكوك.

انظر إلى قول يوسف عليه السلام عندما تحققت (وقعت) رؤياه -التي أراها الله له وهو طفل صغير- بعد ما يقرب من أربعين عامًا: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [يوسف: ١٠٠]

﴿هَٰذَا﴾: إشارة إلى رفع أبويه على العرش (أريكة الملك) ووقوع إخوته له ساجدين.

﴿تَأۡوِيلُ﴾: فهم يزيل الغموض.

﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾: قد صيرها ربي مشهودة بعد أن كانت غائبة.

ولم يترك القرآن ظلًا من شك في "حضور" الله سبحانه وتعالى في هذا الكون (هذه السماوات وهذه الأرض) في هذه الحياة الدنيا فقال على سبيل المثال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤]

وقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧﴾ [المجادلة: ٧]

وقال: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١]

﴿شُهُودًا﴾: حاضرين.

وقال لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه: ٤٦]

وقال عن كل إنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق: ١٦]

﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾: وعاء الدم (الشريان) الخارج من القلب إلى العنق والواصل إلى المخ داخل الجمجمة.

وأخبر نبيه ﷺ أنه سيقص على الناس يوم القيامة ما قاموا به من أعمال عند حسابهم بين يديه: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٧].

ومن المؤكد أننا سنحكي لهم أعمالهم في الدنيا ببيان واضح عليه دليل يثبت صحته، ولقد كنا حاضرين معهم ولم نكن غائبين عنهم وهم يفيضون في تلك الأعمال.

إذن، فغياب الله سبحانه وتعالى، أي كونه غيبًا مخفيًا عنَّا، إنما يكون بسبب غفلتنا نحن عنه؛ فنحن لا ننتبه إلى حضوره. ولذلك أمرنا بذكره

أي دعانا إلى الانتباه إلى حضوره سبحانه وتعالى فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤١- ٤٣].

﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾﴾: انتبهوا إلى حضور الله انتباهًا كثيرًا. والمقصود: اجتهدوا في إخراج أنفسكم من الغفلة عن ربكم الحاضر معكم اجتهادًا كبيرًا. ابذلوا في ذلك جهدكم.

ولذلك أمر عباده بذكره (الانتباه إلى حضوره والخروج من حال الغفلة عنه) في كل الأعمال وطوال الوقت.

﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾ [النساء: ١٠٣].

والصلاة -هنا- هي صلاة الخوف عند القتال والتي بالطبع ستؤدى على عجل ويشوبها التجوز. ولكن يجب الحفاظ على ذكر الله بعدها في جميع الأحوال ﴿قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾﴾.

وقال: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾: وانتبهوا إلى حضوره كما ذكركم هو، أي كما انتبه إليكم برحمته فأرسل إليكم رسوله الذي يرشدكم ويعينكم على السير المفضى إلى رحمته في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾: وما كنتم من قبل ذكره لكم إلا من الضالين الذين لا يجدون الطريق إلى الرحمة.

ولذلك سمى وحيه إلى جميع الأنبياء "ذِكرًا"؛ لأنه انتباه من رحمة الله سبحانه وتعلى إلى عباده؛ لينبههم إلى حضوره.

وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَاسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

﴿۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾ [الجمعة: ١٠]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥﴾ [الأنفال: ٤٥]

الحديث هنا عند الحرب وقتال الأعداء.

بل إن الصلاة نفسها وسائر العبادات الغاية منها هي "ذكر الله".

قال لنبي الله موسى عليه الصلاة والسلام عندما ناداه بالوادي المقدس في سيناء: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾: وأقم الصلاة لتظفر بذكري. نسب الذكر إلى الله فقال سبحانه وتعالى: ﴿ذِكۡرِي﴾.

و"﴿ذِكۡرُ ٱللَّهِ﴾ يعني ذكر العبد لربه، فالعبد هو الذاكر والله سبحانه وتعالى هو المذكور. وفي نفس الوقت يعني ذكر الله لعبده؛ فالله هو الذاكر والعبد هو المذكور.

قال لنبيه ﷺ: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥﴾ [العنكبوت: ٤٥]

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾: إن الصلاة تنهى العبد المؤمن عن إشباع شهوة الجماع بطرق محرمة (الفحشاء) وتنهاه عن الظلم (المنكر).

﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾: ولذكر الله لعبده أكبر من ذكر العبد لله.

كما أوضح هذا رسول الله ﷺ عندما قال على لسان ربه: «**من ذكرني في نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ في نَفسي، ومنْ ذَكَرَني في ملإٍ، ذكَرتُهُ في ملإٍ خَيْرٍ منْهُمْ**».

إذن، فعند الذكر يكون انتباه مُتبادل: العبد يخرج من الغفلة وينتبه إلى حضور الله. والله سبحانه وتعالى ينظر إلى العبد ويقترب منه.

ولذلك فإن قلب العبد المؤمن يشعر باقتراب الله سبحانه وتعالى منه ويتأثر بذلك الحضور الإلهي.

قال الله سبحانه وتعالى في وصف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢].

الوجل: خوف يخالطه الاحترام (التوقير) للحضور بين يدي عظيم.

﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: دخل بواطنهم خوف يخالطه التوقير لمثولهم بين يدي الله سبحانه وتعالى الذي اقترب منهم عندما ذكروه.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾. وزيادة الإيمان تعني نقصان الشك. فهم في طريقهم إلى اليقين.

ومع بقائهم على الطريق، واستمرار سيرهم إلى الله؛ فإن ذكر الله يبعث في قلوبهم الطمأنينة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. هؤلاء هم المنيبون الذين حققوا التوبة، واقتربوا من اليقين. والطمأنينة هي زوال الشك والخوف والحزن من القلب.

درجات الذكر

(١٩)

وذكر الله على ثلاث درجات، كما قال الإمام أبو اسماعيل عبدالله بن محمد «الهروي» - صاحب كتاب (منازل السائرين إلى الحق المبين).

١ - الدرجة الأولى: الذكر الظاهر من ثناء أو دعاء أو رعاية.

والمقصود به الذكر الذي يتحقق بأعمال ظاهرة مثل التسبيح والدعاء والطاعة. فالمسبح والداعي والطائع يستحضر الله أو يخرج من غفلته. وهو الذكر المذكور في قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥﴾ [الإنسان: ٢٥]

يطلب منه أن ينطق باسم الله قبل شروق الشمس (بكرة) وقبل غروبها (وأصيلًا). ونطق اللسان باسم الله ذكر له سبحانه وتعالى، فهو استحضار أو استدعاء له جل جلاله، بمعنى إخراج العبد من غفلته عنه.

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأنفال: ٢٠٥]

يبين هنا شروط الذكر الظاهر المقبول عند الله، وهي:

١ - ﴿تَضَرُّعًا﴾: تذللًا. فأنت عندما تذكر الله يجب أن تشعر بافتقارك إليه سبحانه وتعالى، وتظهر خضوعك له، وتطلب منه أن يتفضل عليك بالقرب.

٢ - ﴿وَخِيفَةً﴾: وشاعرًا بالخوف، الذي يبعثه في قلبك معرفتك أنه سبحانه وتعالى قادر على أن يفعل بك ما يريد، فلا معقب لحكمه.

٣ - ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: وبصوت هامس لا يصل إلى "الجهر" وهو الصوت العالي الذي تسمع به غيرك؛ لأن ربك ليس بعيدًا عنك حتى ترفع صوتك بل هو فِي نَفْسِكَ. فغاية الذكر أن تنتبه إلى حضور الله فِي نَفْسِكَ.

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾: في أوقات الصباح الباكر قبل طلوع الشمس، وفي نهاية النهار قبل غروب الشمس. واختار هذه الأوقات لأنها أوقات الفراغ من تدبير شئون المعيشة، فإنها قبل وبعد الانشغال بأمور الحياة الدنيا (الأموال والأولاد).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩] ولذلك قال: وسبحوه بكرَّة وأصيلًا.

٢- الدرجة الثانية: الذكر الخفي (أو الباطن)

وهو الخلاص من القيود، والبقاء مع الشهود ولزوم المسامرة.

هنا يرتفع العبد درجة، فيبقى منتبهًا إلى حضور الله أي يبقى ذاكرًا دون أن يحصر ذكره في أوقات معينة مثل قبل شروق الشمس أو قبل غروبها أو بعد الصلوات المفروضة، بل يتحرر من تلك القيود ويبقى منتبهًا إلى حضور الله على الدوام مستمرًا في حديث خفي مع ربه. فهو في حال مناجاة دائمة مع الله.

٣- الدرجة الثالثة: الذكر الحقيقي (أو الذكر الحق)

وهو شهود ذكر الحق إياك والتخلص من شهود ذكرك، ومعرفة افتراء الذاكر في بقائه مع ذكره.

هنا يعرف العبد أن الله هو الذي ذكره، أعني هو الذي نظر إليه واقترب منه، وأنه لا وجود -في الحقيقة- إلا لله جل في علاه، وأن المخلوقات جميعًا ليست إلا ظلالًا ظهرت لخروج علم الله من الغيب إلى الشهادة، كما تظهر الظلال على الأرض بشروق الشمس، وأنها سرعان ما تزول؛ فلا بقاء لها، كما تختفي الظلال لغروب الشمس في آخر النهار.

ولقد أشار القرآن إلى هذه الدرجة الثالثة عندما قال -بعد أن أمر بذكر الله ذكرًا كثيرًا وتسبيحه بكرةً وأصيلًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣]

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ: هو الذي يتصل بكم. ينزل ويحضر إليكم بصحبة ملائكته عندما تذكرونه. ففي الحقيقة هو الذي يذكركم لا أنتم الذين تذكرونه.

ويعمل ذلك ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾: ليمكنكم من رؤيته؛ فإنكم لا تستطيعون رؤيته وأنتم في ظلمات (الأحجبة التي تحيط بأنفسكم وتمنعكم من رؤيته) فيزيل بنور حضوره الظلمات؛ كاشفًا عن نفسه فيصبح مشهودًا (حقًا) بعد أن كان غيبًا. وهذا هو اليقين.

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾: يساعدهم على بلوغ الكمال الجدير بهم باعتبارهم صورًا "لروحه" الذي تكون به الرؤية والشهود (الحضور).

﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]

وَلِيُّ: مرشد ومعين. فالولاية تعني الإرشاد والإعانة.

﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: الله يرشد ويعين الذين آمنوا. يرشدهم إلى الطريق المفضي بهم إليه ويعينهم على السير عليه. ولذلك بيَّن دلالة هذه

الولاية فقال: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. والمعنى يمكنهم من رؤيته. ومن ثم يصبح معنى الولاية: كشف الله سبحانه و تعالى عن نفسه وبيان حضوره لعباده المؤمنين. ومن ثم فالولاية تعني وصول الله سبحانه وتعالى إلى عباده المؤمنين. ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾.

﴿الطَّاغُوتُ﴾: الشياطين. سموا بذلك لشدة طغيانهم وتجاوزهم للحد، إذ يجعلون غايتهم محاربة الله سبحانه وتعالى بإضلال عباده.

﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾: يسوقونهم من حال كونهم موضع نظر الله سبحانه وتعالى، داخلين في رحمته التي وسعت كل شيء باسمه "الرحمن"، إلى حال احتجاب الله سبحانه وتعالى عنهم وامتناعه عن النظر إليهم فيخرجون من رحمته إلى النار ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧] لا يموتون بل باقون فيها على الدوام.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران: ٧٧]

فإذا رأي العبد ربه حقًا، ذاب بقاء العبد في حضور الله، ولم يعد له وجود. ولذلك قال صاحب المنازل رَحِمَهُ اللَّهُ في عنوان منزلة "الذكر": قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] يعني إذا نسيت غيره،

ونسيت نفسك في ذكرك ثم نسيت ذكرك في ذكره ثم نسيت في ذكر الحق إياك كل ذكر.

أقول: لأن الله حاضر لا يغيب أبدًا، فلا معنى للذكر -وهو الانتباه إلى حضور الله- إلا ببقاء الغفلة التي يمحوها الذكر!!

(٢٠)

قال الله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر: ١]

أغفلكم التنافس في متع الدنيا، وإرادة زيادة الأموال والأولاد عن ذكر الله، فلم تنتبهوا إلى حضوره.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ٢]: حتى أتاكم الموت ونزلتم ضيوفًا على المقابر التي دفنت فيها أجسادكم. فعند الموت تنتبهون ويأتيكم اليقين إذ تشاهدون الغيب الذي كنت تنكرونه وتشكون فيه.

ولذلك فإن المؤمنين بعد أن يدخلوا الجنة يتساءلون عن مصير المجرمين الكافرين الذين كانوا في الدنيا يحاربونهم المؤمنين، فيكشف الله لهم عن المجرمين فيسألنوهم:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٤٢- ٤٧]

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾: وكنا نكثر من الكلام في أمور الغيب مع من يكثرون دون علم.

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾: وكنا لا نصدق (لا نؤمن) بيوم الحساب بين يدي الله.

﴿حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾: إلى أن شهدنا ما كان غيبًا عندما أتانا الموت. ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩].

وسمي الدفن في المقابر "زيارة" للإشارة إلى أنهم لن يبقوا فيها إلى الأبد، فإن المقابر ليست بيوت الخلود. فإنهم سيخرجون منها بأجسادهم عند قيام الساعة وبعث من في القبور. وبأرواحهم في البرزخ قبل الساعة.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [التكاثر: ٣] : دعوا ما انتم فيه من لهو. فإنكم سوف تتبينون حقيقة ما كنتم به تكذبون عندما يأتيكم الموت باليقين.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [التكاثر: ٤]: أكرر لكم مرة أخرى أنكم سوف تتبينون خطأكم عندما تزول أوهام إذ تأتيكم سكرة الموت بالحق.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر: ٥]: دعو ما أنتم فيه من غفلة فإنكم لو تستطيعون الحصول على ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥﴾ قبل موتكم.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦﴾ [التكاثر: ٦]: لكان من المؤكد أن يكون بوسعكم أن تروا الجحيم وهي قلب (نواة) نار الآخرة التي فيها أشد العذاب.

ذكر هنا ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ وهو أول درجات اليقين.

و﴿عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر: ٥] هو يقين العلم أعني اليقين الذي يُنال بتوفر الأدلة على صحة الرسالة الإلهية (الخبر الإلهي). وقد وصفه صاحب المنازل رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: **وهو قبول ما ظهر من الحق. وقبول ما غاب للحق والوقوف على ما قام بالحق.**

وقوله **"قبول ما ظهر من الحق"** معناه: قبول رسالة الله أو الخبر الإلهي، لأن هذا هو ما أظهره (أعلنه) الحق سبحانه وتعالى من نفسه.

ومعنى قبول الرسالة الإلهية هو الرضى بكل ما جاء فيها، وتطهير القلب من الشكوك التي تثيرها الشبهات وهي المسائل الملغزة التي تسبب الحيرة ولا يجد لها العقل (الفؤاد) البشري إجابات شافية.

وقبول ما غاب للحق: الرضى بما خفى عن الإدراك مما استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه توقيرًا للحق سبحانه وتعالى وتقديرًا لحكمته.

والوقوف على ما قام بالحق: الرضى بما جرت بـه الأقـدار؛ للتحقـق من أن إرادة الحق سبحانه وتعالى قائمة وراء كل شيء. ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: ٥٣].

﴿مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾: مسجل في كتاب العلم الإلهي قبل خلق السماوات والأرض ولا سبيل ولا حكمة في طلب تغييره.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٣].

إن الله واصل لا محالة إلى ما يريد، قد أنزل مـن كتـاب علمـه لكـل شيء وقتًا ومكانًا ومقدارًا يظهر فيه.

ولذلك كان من دعاء رسول الله ﷺ: «**اللهم هبنا من اليقين ما يهون علينا مصائب الدنيا**».

(٢١)

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر: ٧]

هنا نرتفع إلى الدرجة الثانية من درجات اليقين وهـي: "عـين اليقـين" وهو اليقين القائم على العيان (الرؤية) أي يقين العين الذي يقع بالرؤية.

وهو اليقين الذي وصفه صاحب المنازل بقوله: «**وهو المغني بالاستدراك عن الاستدلال، وعن الخبر بالعيان وخرق الشهود حجاب العلم**».

والاستدلال هو التفكر. وهو إقامة الأدلة بالشواهد (الأشياء المحسوسة) للوصول إلى الحقائق الغائبة (الباطنة).

ويعني استعمال الأدلة "العلمية" لإثبات صحة الرسالة الإلهية. كان ذلك في بناء درجة «علم اليقين».

أما في درجة عين اليقين فإن العبد يدرك أنه يتذكر (يستعيد) علم الله القديم الكامن في نفسه. فهو لا يحتاج إلى الاستدلال ويستغني عنه باستدراك علم الله.

وفي هذه الدرجة يتفضل الحق سبحانه وتعالى بتمكين عبده من "رؤية" الآيات التي تشهده بعض ما في الغيب. فهذا ما يقصده صاحب المنازل بقوله: **وعن الخبر بالعيان**.

وإلى هذا أشار القرآن الكريم بقوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠- ٢١]

قوله: "﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ دعوة إلى الرؤية (العيان) فهو استفهام بمعنى الحث على الرؤية وذم التقاعس عنها. فهو إشارة إلى «عين اليقين»، ودعوة إلى الوصول إليه.

وقوله: «**وخرق الشهود حجاب العلم**» معناه: إن العلم إطار لرؤية العقل (الفؤاد). فهذه رؤية محكومة ومحاصرة بإطار الأدلة، كأنها بمثابة

رؤية الشمس من وراء زجاج شفاف في نافذة. إنها رؤية صحيحة ولكنها من وراء حجاب، فإذا فتح الإنسان النافذة الزجاجية وتطلع إلى الشمس مباشرة من غير حجاب النافذة كانت رؤيته أوضح.

وكذلك عندما يأتي الشهود (المعاينة) ليخرق حجاب (إطار) العلم.

ويقع «عين اليقين» لجميع العباد يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٨٨- ٩١]:

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾: وأخرجت الجحيم من الغيب وعُرضت ظاهرة واضحة لا يخفيها شيء عن عيون الضالين الذين اتبعوا الشياطين.

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ٨] الذي كنتم فيه في الدنيا فلم تشكروا الله عليه.

(٢٢)

وأخيرًا يرتقي العبد الدرجة الثالثة من اليقين وهي «﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]. وهو "اليقين الحق" القائم على تحقق العبد من أنه مجرد ظل لخروج الحق سبحانه وتعالى من الغيب إلى الشهادة. مجرد ظل زائل لا بقاء له.

وهو اليقين الذي وصفه صاحب المنازل بقوله: «**وهو إسفار صبح الكشف، ثم الخلاص من كلفة اليقين، ثم الفناء في حق اليقين.**»

إسفار صبح الكشف: تألق كشف الحق سبحانه وتعالى عن نفسه.

ثم الخلاص من كلفة اليقين: ثم التحرر من إدراك التحقق، لإن التحقق يبقى طرفين لم يتم توحيدهما.

ثم الفناء في حق اليقين: عندما يذوب شهود العبد في شهود الحق الذي ظهر من الغيب، كما تختفي قطرة الماء التي نزلت في المطر عندما ترجع إلى البحر الذي صعدت منه.

قال صاحب المنازل رَحِمَهُ اللَّهُ: **اليقين مركب الآخذ في هذا الطريق، وهو غاية درجات العامة وقيل أول خطوة الخاصة.**

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ [الحاقة: ٩٥]

وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ [الحاقة: ٥١] والحديث بلا شك عن القرآن الكريم. فكيف يكون القرآن الكريم على سبيل القطع والتأكيد الذي حملته "إن" و "اللام" في الآيتين هو «حق اليقين»؟

القرآن الكريم هو وحي الله الذي نزله "روح القدس".

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: ١٠٢]

﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ هو رسول الله القدوس.

والقدوس: اسم الله المعبر عن إرادته التعريف بنفسه والكشف عن غيبه. إذن فروح القدس هو رسول الله المعبر عن إرادة الله الكشف عن نفسه.

فهو إذن «روح الله» الذي بيَّنا أنه الكائن الأول الذي انبعث من الغيب وتولد من انبعاثه النور الذي كشف عن علم الله.

فهو المعبر عن إرادة الله سبحانه وتعالى التعريف بنفسه. وهو «الوسيلة» إلى معرفة الله ولا يُعرف الله جل جلاله إلا من خلاله.

وكان النبي ﷺ، البشر الذي وُلد من رحم آمنة بنت وهب، وأوحى الله إليه القرآن عندما بلغ الأربعين، وأمره بإبلاغه للناس وجاهد في سبيل الله حتى مات ودُفن جثمانه الشريف في المدينة المنورة... كان هذا النبي هو الصورة الظاهرة التي حملتها الأرض لروح الله «روح القدس».

وإلى تلك الحقيقة أشار القرآن الكريم عندما قال في وصف رحلة المعراج "﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم: ٩].

والمقصود فكان النبي من شدة اقترابه من روح الله (روح القدس) وتوحده معه كأنهما قوسين التصقا معًا فأصبح كأن لهما قابًا واحدًا.

والقاب: نصف القوس، ولكل قوس قابان يربط بينهما مقبض لقوس الذي يمسك به الرامي عندما يشد الوتر ليقذف بالسهم.

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

يطلب من أصحاب النبي ﷺ ومنا أن نرفع أبصارنا من رؤية يد النبي فوق أيدي الذين يبايعونه إلى رؤية "يد الله" التي هي رسول الله ﷺ.

ولذلك فعندما يكلم نبي الله ﷺ الناس بالقرآن، فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي -في الحقيقة- يكلمهم؛ لأن النبي هو صورة روح الله (روح القدس) الذي هو صورة الله التي من خلالها نرى الله سبحانه وتعالى ونتعرف عليه، فصورة الشخص تعرفنا به. فإذا رأيناها عرفناه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة: ١١٨].

لننظر. هنا لم يقل الذين لا يؤمنون بل قال "﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأن غياب الله أو الغفلة عن حضوره صفة يشترك فيها الكافرون والمؤمنون. ولكن الفرق بين الفريقين أن المؤمنين يصدقون الخبر الإلهي والكافرين يكذبونه.

﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾: لم لا يكلمنا الله. فهم في غفلة عن أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يكلمهم حقيقة لا مجازًا.

﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ تدلنا على حضوره. ويغفلون عن أنهم أنفسهم آيات الله، بالنظر إلى ان نفوسهم -في حقيقتها- كلمات الله سبحانه وتعالى التي عبَّر بها عن نفسه.

﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ مع الذين كانوا من قبلهم وقالوا مثل قولهم في احتجاب الله عنهم أي في غفلتهم عن حضور الله.

﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة: ١١٨].

صدق الله العظيم

إبحار في أعماق القرآن

(مقالات في التفسير)

(١)

ما هو التأويل؟ وما هو التفسير؟

(تجديد علم التفسير فريضة دينية وضرورة عقلية)

لا يجادل عاقل -سواء أكان مؤمنًا أو كافرًا- في أن القرآن الكريم هو أعظم كتاب في تاريخ البشرية؛ فقد أجمع على بلاغته وعمقه الفكري العرب والعجم مهما كان موقفهم الديني. ولا نحتاج إلى ذكر الاستشهادات على هذه الحقيقة؛ فإنها أكثر من أن تحصى.

ومن محاولة فهم معاني القرآن الكريم وسر بلاغته نشأ «علم التفسير»؛ لأن الكثير من آياته يحمل الكثير من الدلالات، كما قال أبوبكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن القرآن حمال أوجه، يعني تحمل آياته الكثير من المعاني ويمكن أن تفهم على أكثر من وجه.

وقد قال الله سبحانه وتعالى عن القرآن مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

﴿ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾: آيات قد ضُبطت ألفاظها؛ لتعطي دلالة واضحة، ومعنى واحدًا يدركه كل من يفهم ويتقن اللغة العربية التي نزل بها هـذا القرآن.

وهذه الآيات هن "أم الكتاب" التي يجب الرجوع إليها عند محاولة فهم وتفسير القسم الآخر من آيات القرآن وهي الآيات المتشابهات التي تحتمل أكثر من معنى ويمكن أن يكون لها أكثر من دلالة. ولـذلك يجـب إرجاع المتشابهات إلى المحكـمات التـي تمثـل أم الكتـاب. والمقـصود أن نختار من المعاني الكثيرة أو الأوجه المتعددة مـا لا يتعـارض مـع المعنـى الذي تدل عليه الآيات المحكمات.

إن القرآن الكريم يحمل كنوزًا من العلم سيتوالى الكشف عنها، كلما تقدمت وتطورت المعرفة الإنسانية في مختلـف الميـادين (الآفـاق)، كـمال قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾: من أجـل أن يعلمـوا (يملكـوا الأدلـة على) أن القرآن كلام الله الحامـل لعلمـه سـبحانه وتعـالى، وهـو الحـق: الصواب الذي لا يشوبه خطأ فهـو منـزه عـن الـوهم؛ لأن القـرآن هـو شهادة الله سبحانه وتعالى التي أعلنها لعباده.

والمقصود: إن معاني آيات القرآن الكريم سيتوالى الكشف عنها في نور العلم الإنساني الذي يزداد اتساعًا وعمقًا مع مرور الزمن. وبذلك من المحال أن يصل جيل من البشرية إلى الغاية من العلم بالقرآن. ولذلك لم يفسر نبي الله ﷺ القرآن الكريم للجيل الذي شهد تنزيله، بل ترك المجال مفتوحًا أمام العقول البشرية لتنهل من علم الله الكامن في آيات القرآن المجيد.

ولذلك؛ فإننا في أشد الدهشة والاستنكار من موقف أصحاب صنعة «العلوم الشرعية» والسلفيين الذين يريدون إيقاف الزمن والتحجر أمام المعاني التي وقف عليها الآئمة السابقون عندما فسروا القرآن، الذين خالطت عقولهم أوهام وأساطير عصورهم وحاصرتهم الأسئلة التي فرضها عليهم التاريخ الذي عاشوه.

إنهم يبررون التحجر على أقوال السلف بحجة الحفاظ على قدسية «كلام الله» والدفاع عن ثوابت الدين، وحتى لا يكون تفسير القرآن ملعبًا للهواة.

وبالفعل، فنحن في حاجة ماسة إلى تعريف دقيق جامع مانع، يحدد ما هو التفسير الصحيح حتى لا يفتن الذين في قلوبهم زيغ الناس في دينهم بمحاولة لي أعناق الآيات المتشابهات إلى المفاهيم الخاطئة التي

توافق أهواءهم، ويثيرون بذلك الفوضى والاضطراب في عقول الناس، وفي نفس الوقت لا نتحجر عند الخرافات والأساطير التي امتلأت بها التفاسير المعتمدة.

ولذلك نقول: إن التفسير الجدير بهذا الاسم هو عمل عقلي مركب من ثلاثة أعمال هي:

١ - **التأويل**: وهو كشف غموض النص (أو العمل الظاهر) وإزالة الشبهات التي توهم بوجود تضارب أو تناقض مع الحقائق الثابتة والمتفق (المجمع) عليها.

ولا يتحقق التأويل إلا بعلم "إضافي" يمكن الإنسان من توضيح النص (أو العمل الظاهر) بالقدرة على النفاذ من الظاهر أو السطح إلى الباطن أو العمق، وكشف السر، واختيار المعنى الذي يتوافق مع الحقائق من بين المعاني المحتملة التي تحملها الآية المتشابهة.

ولذلك سُمي "العبد الصالح" الذي أمر الله سبحانه وتعالى نبيه وكليمه موسى بالذهاب إليه ليتعلم منه... سمى ما قدمه من بيان لأعماله -التي أثارت الشك والغموض في حقيقته- تأويلاً

قال: ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢﴾.

وأستطيع أن أقول بكل بساطة ووضوح أن التفاسير المعتمدة

المشهورة عند أهل الصنعة لم تنجح في التأويل بهذا المعنى الدقيق الذي قدمته. ولذلك بقيت المسائل المشكلة في النص القرآني كما هي!!

٢- التأليف.

ويعني جمع النصوص المتناثرة في مواضع مختلفة والتي تتناول قضية واحدة في سياق واحد من أجل رؤية «الصورة الكاملة» لمعالجة القرآن الكريم لتلك القضية. وهنا العيب الأكبر الذي وقعت فيه التفاسير المعتمدة، إذ يتناول المفسر اللفظة القرآنية أو الجزء من الآية منتزعًا من سياقه داخل الآية نفسها، ومتغافلاً عن الآيات (النصوص) الأخرى التي تناولت نفس القضية، ثم يُفرع القضايا ويذكر الآراء المختلفة على هذا الجزء من الآية.

وأقول أن أصل أغلب الخلافات والنزاعات في الفقه والفكر الإسلامي نشأت من هذه النظرة الجزئية التي افتقدت «الرؤية الكاملة» لمجموع النص القرآني. وتستوي في ذلك قضايا التشريع (الزواج، والطلاق،....) وقصص الأنبياء، وأحداث خلق الكون، وأحاث يوم القيامة؛ ولذلك لا يخرج قارئ التفسير إلا برؤية مضطربة مشوشة من كثرة الآراء المختلفة التي يحرص المفسر حرصًا شديدًا على ذكرها رغم سخافة بعضها.

لم يبذل أي جهد يُذكر في جمع النصوص التي تتناول قصة نبي مثل موسى عليه الصلاة والسلام، ووضعها في سياق واحد من أجل رؤية تطور الشخصية الإنسانية وتطور أحداث القصة. هذا مجرد مثال واحد صارخ!

والأدهى والأمر أنهم يبحثون عن معاني بعض الألفاظ القرآنية بعيدًا عن استعمال القرآن لها. مثل قولهم: الخلق إيجاد من عدم. مع أن لفظة العدم لا توجد في النص القرآني ولا في الأحاديث النبوية.

ثم إنهم يتوهمون أن في القرآن مترادفات، أعني استعمال كلمات مختلفة للتعبير عن معنى واحد. ولا ينتبهون إلى الحقيقة التي تقول: عندما يستعمل القرآن لفظًا مختلفًا فإنه يقصد معنى متميزًا يختلف عما يمكن التشابه معه.

وتبلغ الجرأة ببعضهم حد أن يقول: هذا حرف زائد لا مفهوم له...

٣- الشرح أوالبسط.

وهو تفصيل ما أجمله القرآن الكريم. وهنا تأتي السنة والسيرة النبوية لتفصيل وبالتالى توضيح ما ذكره القرآن مختصرًا. وتأتي المعرفة الإنسانية التي تزداد اتساعًا وعمقًا لتزيد النص القرآني المعجز وضوحًا وبرهانًا على استحالة الإتيان بمثله. علينا أن نعترف بأن أسلافنا كانوا

على جهل شديد بأنباء الأمم السابقة، وقضايا خلق الكون، وشتى مجالات العلم التي وصل إليها الإنسان في العصر الحاضر ومن ثم تصبح أقوالهم في تلك المجالات التي تناولها النص القرآني ضروبًا من الأوهام. علينا أن ننتبه إلى خطورة بقاء تلك الأوهام مرتبطة بل ملتصقة بالنص القرآني نفسه، بل وتقديسها كأنها تنزيل من التنزيل.

وليس العيب في مفسرينا السابقين. وإنما العيب فينا، لأننا صرنا نقدس ما لا يجب تقديسه مثل الذين قَالُوا ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٤].

وأحب أن أحيل القارئ إلى مقدمة كتابي «حقيقة المعراج» وكتابي «ما معنى تجديد الخطاب الديني؟»

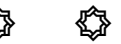

(٢)

معنى «الخَلْق» في نص القرآن الكريم

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

الضمير الغائب في الآية يعود إلى الأرض. والمعنى: من الأرض خلقناكم وإلى باطنها نرجعكم بالموت، ومنها نخلقكم مرة ثانية عند البعث من القبور بعد قيام «الساعة».

وقوله: ﴿نُعِيدُكُمْ﴾ يعني أننا قد نبتنا (نشأنا) من الأرض في مرة سابقة قبل ولادتنا من الأرحام -في هذه الحياة الدنيا المشهودة -ولذلك كان موتنا رجوعًا إلى الأرض.

وقوله: ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾ يعني نخلقكم مرة ثانية، ويعطي لفظ «الخلق» معنى «الإخراج»، أي الإظهار أو الخروج من الخفاء.

ومن أجل توضيح هذا المعنى عبّر الله سبحانه وتعالى عن الخلق بلفظ "الفطر".

والفطر لفظ يدور معناه حول الشق أو الفلق لإخراج ما احتواه

باطن الشيء. فعندما يقول الأعرابي في عصر الجاهلية قبل نزول القرآن الكريم: فطرتُ البئر، فهو يقصد حفرت أو شققت وجه (سطح) الأرض لأظهر عين الماء التي كانت باطنة (كامنة) فيها.

وعندما كان يقول: فطر ناب البعير؛ فهو يقصد قد شق سن الجمل اللثة، فخرج من باطنها وظهر في جوف الفم.

وعندما يقول الله سبحانه وتعالى عن نفسه فطر السماوات والأرض؛ فهو يقصد شق (فلق أو فتق) الشيء الأول الذي أعطاه اسم «أول خلق» ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ووصفه بأنه "ملكوت كل شيء" وبين لنا أننا سنعود إليه يوم القيامة.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨٣].

ملكوت كل شيء: الشيء الأول الذي خرج منه كل شيء تحت العرش الإلهي.

وإلى ذلك الملكوت نرجع يوم القيامة لنخرج في خلق جديد؛ ولذلك كان "الفاطر" من أسمائه سبحانه وتعالى.

و«البراءة» تعني الخروج من حال الكمون والتقييد إلى الظهور والنشاط؛ فإننا نقول للمريض عند شفائه من المرض: لقد برأ من مرضه، نعنى خرج من حصره وتقييده. ونقول للمتهم عند ظهور عدم

إدانته "لقد أعلنت براءته" أو "لقد حكم القاضي ببراءته". وكذلك نتحدث عن براءة الاختراع عند الكشف عن شيء جديد لم نكن نعلمه من قبل،.... ولذلك عبر الله سبحانه وتعالى عن الخلق بلفظ "البرء" وسمى نفسه "البارئ" وقال: "﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢].

والمعنى: كل الأضرار التي تصيبكم في الأرض (البيئة) من حولكم أو في أنفسكم من موت أو مرض أو فقر كانت مسجلة (مكتوبة) في كتاب العلم الإلهي من قبل أن نخرجها (نُظهرها) من "ذلك الكتاب".

إن إخراجها من ذلك الكتاب أمر يسير (سهل) على الله؛ لأنه يقول لأي شيء في ذلك الكتاب: "كن" فيكون.

والمقصود بيان أن الأشياء (المخلوقات) في حقيقتها أعنى جوهرها وأصلها «كلمات» إلهية عبر بها الله عن نفسه سبحانه وتعالى، وأودعها في ذلك الكتاب الذي سجل فيه علمه قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

ولكن الكلمات لكي تصبح مخلوقات لابد لها من قوة دفع تخرجها من ذلك الكتاب، فتصير مشهودة ظاهرة بعد أن كانت غائبة خافية.

وتستمد الكلمات تلك القوة من «روح الله» الذي تكون بـه الحيـاة. ولذلك يأخذ لفظ الخلق معنى الإحياء.

قـال تعـالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

فجعـل الإماتـة المـذكورة في قولـه ﴿يُمِيتُكُمْ﴾ نقيـضًا للخلـق والرزق (الإمداد بوسائل الحياة) ومن ثم أكـسب لفـظ «الخلـق» معنـى «الإحياء»؛ لأن الخلق يكون باتصال الكلمات المـسطورة (المحبوسـة) في "ذلك الكتاب" بالنور النازل إليها من "روح الله" والـذي يخرجهـا مـن الغيب إلى الشهادة.

ولكن الكلمات لكي تصير مخلوقات بقوة الروح لابد أن تتشكل في هيئة، أعني لابد لها من صورة تصبح بها مشهودة.

ولذلك يكتسب الخلق معنى التصوير. فيسمى الله نفسه "المـصور" سبحانه وتعـالى، وقـال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: ٦].

﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾: يجمع ويؤلف بين الأجزاء التي تـصنع الهيئـة التـي تظهرون فيها. وفي كلمة واحدة يركب أجزاء أجسادكم لتصنع الـصورة التي تجعلكم مشهودين.

﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾: على النحو الذي يختاره لكم بمقتضى علمه القديم بكم.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي لا يُكره على شيء لا يريده.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: الذي يتصرف في الأشياء بمقتضى علمه وعدله ورحمته، من أجل إظهار وحدانيته.

وسيقول للإنسان يوم القيامة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨].

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾: في جميع الصور أخرجك من الغيب وجعلك مشهودًا. كلما اختار لك صورة أظهرك فيها.

وتركيب الصورة يعني جمع الأجزاء وضمها مع بعضها وإحداث الترابط والتأليف بينها. وفي كلمة واحدة «تكوين البناء». وهكذا يتخذ لفظ الخلق معنى البناء.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

﴿خَلْقًا﴾: بناءً. والمعنى هل أنتم أقوى بناءً من السماء؟!

ثم أما بعد، فإن هذه الرحلة في سماء النص القرآني تؤكد لنا، بما لا يدع مكانًا لشك، تهافت معنى الخلق الذي توافق وأجمع عليه من يُطلق عليهم العلماء، إذ توهموا أن الخلق يعني الإيجاد من عدم. والسؤال أين «العدم» في آيات الذكر الحكيم؟!!

(٣)

كيف وُلد الكون؟ وكيف يموت؟

هذا هو السؤال الذي حيّر الإنسان منذ وطئت قدماه سطح هذا الكوكب الأرضي، حتى يوم الناس هذا. وكان سببًا في نشأة وتطور كل الثقافات البشرية (العلوم والفنون والفلسفات أو العقائد) التي كانت بمثابة إجابات من وجهات نظر مختلفة ومن مستويات متعددة لذلك السؤال.

والآن يستطيع الإنسان بموجب «الحقائق العلمية» الدامغة أن يكون على يقين تام بأن لهذا الكون (هذه السموات وهذه الأرض) بداية، هي بمثابة لحظة الولادة للكائن البشري.

ويقدر العلماء المتخصصون في الفيزياء والفلك أن تلك البداية (الولادة) كانت منذ ما يزيد على ١٣.٥ مليار (ألف مليون) سنة من سنوات حياتنا الأرضية فوق هذا الكوكب.

ويؤكد العلماء أن هذا الكون كله قد انبثق (وُلد) من نقطة واحدة يسميها علماء الفيزياء والفلك "المُفردة" الأولى، كنتيجة لضغط هائل - لا يمكن للوسائل العلمية المتاحة للإنسان قياسه- أدى إلى الانفجار -

الـذي يـسمونه «الانفجـار العظـيم-Big Bang»- تكونـت المجـرات والنجوم والكواكـب والأقـمار وسـائر مكونـات هـذا الكـون المـشهود بتكثف وتجاذب «الأجسام الأولية» التي تحولـت إليهـا طاقـة الانفجـار العظيم.

ومن ذلك نفهـم أن الـسماوات والأرض كانـت في الأصـل -قبـل الانفجار العظيم- مادة (كتلة) واحدة لا يمكـن للعلـم البـشري قيـاس أبعادها ومدى كثافتها.

وإلى تلك الحقيقة المذهلة أشار القرآن العظيم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿رَتْقًا﴾: شيئًا ملتصقًا ملتحمًا يُمسك بعضه ببعض.

﴿فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ﴾: ففصلناهما وأبعدناهما عـن بعـضهما بإحـداث فتـق (شق أو فلق) في ذلك الشيء الأول المندمج. فانبعثت من داخله (باطنه) طاقة حرارية هائلة تحولت إلى سحب من الأجسام الأوليـة بالغـة الدقـة (الصغر)، وأدق لفظ عربي أو بشري يمكن أن يصفها هو «الدخان».

ثم أخذ ذلك الدخان يتكثف مكونًا الأجرام السماوية التـي نـشهد بعضها اليوم عبر ملايين السنين.

وقد عبّر عن السماوات والأرض بصيغة المثنى (الإثنين) للدلالة على أن السموات المتعددة التي نشهدها -والتي عدّها القرآن المجيد «سبعًا طباقًا» أي سبع طبقات متراكبة فوق بعضها- كانت في الأصل عند البدء سماء واحدة ثم رتّبها الله على سبع طبقات.

وإلى حقيقة أن السماء كانت ملتصقة بالأرض عند بدء الخلق أشار القرآن بقوله: «﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ [الغاشية: ١٨]، ملوحًا إلى أن السماء كانت مع الأرض ثم رُفعت فوقها.

وإذا كانت هذه هي البداية، فيمكننا تصور النهاية بحركة معاكسة، تضم الأجزاء المتباعدة -بفعل الانفجار العظيم- إلى بعضها وتعيدها إلى النقطة (المفردة) الأولى.

وإلى ذلك أشار القرآن الكريم بقوله عما يحدث يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿ٱلسِّجِلِّ﴾: الكاتب الذي يبسط بين يديه الكتاب (الصحيفة)، ويكتب ما يُملى عليه. ثم يقوم بطي الصحف (الكتب) عند انتهاء الإملاء. بهذا التشبيه صور الله سبحانه وتعالى لنا حركة رجوع أجزاء الكون الذي يزداد اتساعًا (المجرات المتباعدة) إلى نقطة البداية أي المفردة

الأولى في يوم القيامة، عندما يتم الله جلت قدرته تدمير هذا الكون المشهود ويجمع أجزاءه؛ لينشئ كونًا جديدًا تكون فيه جنات عدن (جنات الخلود) وجهنم (العذاب المقيم).

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾: أول مخلوق. يعني المخلوق الذي بدأ منه كل شيء، فهو ملكوت كل شيء. ونحب أن نلفت انتباه القلوب إلى أن ذلك الخلق الأول قد خرج من الغيب من تحت (وراء) عرش الله، فعرش الله سابق على أول خلق.

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾: على النحو الذي بدأنا به أول خلق سنرجعه إليه. لنبدأ خلقًا جديدًا. ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

والسؤال: ما السبب في ذلك "الانفجار العظيم"؟ وبكلمات أخرى: ما سبب قوة الضغط الهائل الذي تعرضت له المفردة الأولى (أول خلق) وأدى إلى انفجارها وإطلاق الطاقة الهائلة الكامنة فيها والتي تحولت إلى المادة التي صنع منها هذا الكون المشهود؟

هذا سؤال لا يجيب عنه العلم. ولكن الإيمان يعطينا الجواب.

إنها طرقة (ضَربة) من إصبع "روح الله" على ذلك الخلق الأول

أدت إلى انفجار الطاقة الهائلة الكامنة فيه، والمعبرة عن إرادة الله -جل في علاه- في الكشف عن نفسه سبحانه وتعالى؛ لأن هذا الكون (هذه السماوات وهذه الأرض) بمثابة مرآة تتجلى على صفحته المصقولة أسماء الله سبحانه وتعالى..

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ [الزمر: ٦٧].

سبحان الله عدد خلقه

سبحان الله مداد كلماته

سبحان الله زنة عرشه

سبحان الله رضى نفسه

(٤)

البحث عن الجنة المفقودة

(الفن واللعب والجنون)

لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا: «إن الإنسان هو الكائن الأرضي (المخلوق الطيني) الذي يطلب الخلود. إنه يسعى إلى الانتصار على الموت الذي سيفني جسده (كيانه الطيني) لا محالة».

ومن ثم يمكننا أن نقول: إن الرغبة في الخلود هي الباعث الجامع الذي تندرج تحته كل بواعث الإنسان، والتي يمكن أن تُفسر مجموع سلوك الإنسان على مستوى الفرد والجماعة. والسر في ذلك يكمن في نفخة "روح الله" التي حصل عليها الإنسان ووهبته الحياة.

ولقد أدرك إبليس تلك الحقيقة.

ولذلك جعلها وسيلته في إغراء وإغواء آدم أبو البشر، عندما زين له أن يأكل من الشجرة التي حرم الله عليه الأكل منها، بزعمه الكاذب له: أنها شجرة الخلد التي إذا أكل منها نال الخلود والحصول على مُلك دائم لا يزول.

وبمكر من الله؛ ليقضي أمرًا كان مفعولاً، سمح لإبليس أن يدخل الجنة ويقترب من آدم.

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه: ١٢٠].

وبهذه الوسوسة (التزيين) ألقى في قلب آدم الشك في حقيقة أمر الله، وبث فيه إساءة الظن بالله سبحانه وتعالى.

ثم جلس آدم مع زوجه حوآء، وهو يفكر فيما قال له إبليس. فذهب إليهما.

« ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾: كان غرض الشيطان أن يكشف لهما عما أُخفي عنهما من عوراتهما.

وبيان ذلك أن آدم وحواء -وسائر البشر- من مخلوقات الأرض التي صُنعت أجسادهم من الطين. ولما رفعهم الله سبحانه وتعالى إلى السماء، وأدخلهم الجنة، فإنه سبحانه وتعالى قد ألبس كل واحد منهم الثوب اللائق بدخول الجنة والذي يتمكن به من البقاء فيها. وهو الثوب الذي سماه الله في آية أخرى "﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ [الأعراف: ٢٦]. كما يجب على

الإنسان أن يلبس الزي الرسمي اللائق عند حضوره حفلًا فخمًا يحضره الملأ من الناس من أصحاب المقامات الرفيعة.

وبارتداء ذلك "الثوب النوراني" نسي آدم وحوآء جسدهما الطيني وأصلهما الأرضي.

وبالمعصية لا يستحق الإنسان دخول الجنة والبقاء فيها ويسقط عنه ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ النوراني. فكان غرض إبليس أن يزين (يوسوس) لهما معصية الله لكي يفقدا ثوبهما النوراني، وتنكشف لهما عورات جسدهما الطيني، ومن ثم لا يستحقان البقاء في الجنة ويحكم عليهما بالعودة إلى الأرض التي خرجا منها.

إذن عليه أن "يُزَيِّن" لهما الأكل من الشجرة الأرضية الخبيثة التي حرم الله عليهما الأكل منها.

﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠].

لم يحرم ربكما عليكما الأكل من هذه الشجرة إلا ليمنعكما من أن تبقيا في هيئة ملكين أو تصيرا من الخالدين.

والملائكة هم الأرواح المطهرة الذين يعيشون في السموات ولا يموتون؛ لأنهم الوسائل التي "يُحيي" بها الله الأنفس. فهم سكان

السموات السبع الذين لهم البقاء والنجاة من الموت.

والخالدون هم "العالون" الذين جاء ذكرهم على لسان الله في خطابه لإبليس عندما عاتبه على رفضه السجود لآدم.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ [ص: ٧٥].

﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾: هل بعثك على الامتناع عن السجود لآدم ظنك أنك أكبر (أعلى مكانة) من الخضوع لأمري أم توهمك أنك أحد "العالين" سكان الملأ الأعلى الذين يجاورون "روح الله" عند العرش الإلهي.

إذن، الخالدون هم العالون. وهم الملائكة المقربون الذين هم -في المكانة- أعلى من سائر الملائكة سكان السموات.

وهم لا يموتون.

وهكذا أثار إبليس في آدم وحوآء الرغبة العميقة في الخلود والانتصار على الموت.

وأثار فيهما إساءة الظن بالله جل في علاه، وزين لهما أن الحصول على الخلود والنجاة من الموت يتحقق بمعصية الله بالأكل من شجرة الخلد والملك الذي لا يبلى بزعمه.

مع الرغم من أن الأكل من هذه الشجرة سيكون السبب في الخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض ومكابدة الموت.

ولكي يؤكد إبليس لهما صحة زعمه الكاذب سارع بالحلف لهما على صدقه وإخلاصه لهما.

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف: ٢١] وحلف لهما أنه من المخلصين في نصيحته بالأكل من الشجرة.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ﴾.

الإدلاء: الإنزال من أعلى إلى أسفل، أعنى الإسقاط الذي يسفر عن «الهبوط»

لقد نجح إبليس في إغوائهما، فنزلا من الجنة في السماء إلى الأرض ليأكلا من الشجرة الملعونة التي أغراهما بأن الأكل من ثمرها يظفرهما بالخلود..

كانت وسوسته "غرورًا" أي خداعًا، انطلى عليهما ولم يفطنا إلى كذبه ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾ [البقرة: ٣٦].

الزلل: الوقوع بغير توقع ولا انتباه. لقد سقطا من السماء إلى الأرض دون انتباه إلى الإهانة التي ستلحق بهما ولا إلى الخطر الذي سيحيق بهما. لقد نجح إبليس في إخراجهما من الجنة واستزلهم بالمعصية..

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٢].

بمجرد أن وضعا الثمرة المحرمة من الشجرة الملعونة في فيهما اختفى الثوب النوراني، وظهر لهما الجسد الطيني الذي يحملانه بكل ما عليه من عورات قبيحة كانت مستورة عنهما.

كانت صدمة العري مروعة. وشعرا بندم عميق وخزي أعمق.

وأسرعا يدخلان الجنة وإبليس يضحك ساخرًا منهما وهو يوقن أنهما لابد سيطردان من الجنة ويرجعان إلى أصلهما الطيني الدنئ ليعانيا الموت مثل كل المخلوقات الأرضية ليتحولا إلى تراب تدوسه الأقدام.

لقد توهم أنه انتصر في معركته ضد الله وأهان الإنسان الذي فضله الله عليه بلا سبب!!

﴿فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ [البقرة: ٣٦] إذ زال عنهما ثوب التقوى وبدا لهما عريهما وأسرعا يصعدان إلى الجنة.

﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ [الأعراف: ٢٢] ليسترا عريهما وعارهما..

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: ٢٢].

وصدر الأمر الإلهي لنا جميعًا نحن البشر آدم وحوآء وأولادهما الذين سيخرجون على الأرض بالتزاوج والولادة من الأرحام..

﴿ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة: ٣٦- الأعراف: ٢٤].

هكذا هبطنا -نحن البشر- من الجنة إلى الأرض لنعاني الابتلاء والموت يحدونا الأمل في العودة إلى الجنة حيث النجاة من الموت والحياة الدائمة في النعيم المقيم الذي لا يزول.

وفي قلب (باطن) كل واحد منا ذكرى من حياته القديمة في الجنة. ورغبة عميقة محمومة في العودة إليها. تلك الذكرى هي أصل حاسة الجمال المودعة في قلب كل إنسان. والتي يوقظها ويبعثها الشيء الجميل بصورته التي تذكر الإنسان بالجنة التي كان فيها قبل الهبوط إلى الحياة الدنيا.

ويعبر الإنسان في هذه الحياة الدنيا عن رغبته في الخلود والعودة إلى الجنة التي فقدها في شتى الأعمال.

وربما كان الزواج بين الذكر والأنثى، ولذة الجماع وإنجاب الأولاد الذي يحملون صورته واسمه عبر الأجيال هي أكثر الصور شيوعًا التي تحمل رغبة الإنسان في الخلود.

وربما يكون جمع المال الذي يوفر للإنسان الحياة الرغدة الناعمة المترعة باللذات أحد أهم صور تعبير الإنسان عن الرغبة في الخلود «﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾»

وياتي **الفن** على رأس الأنشطة الإنسانية التي يمارسها البشر من أجل أن يحققوا بها الخلود ويتجاوزوا بها -على نحو رمزي- عقبة الموت.

ففي الفن يصنع الإنسان عالَمًا خياليًا "محسوسًا" يوازي العالم الواقعي الذي يدركه العقل، والذي يعجز عن فهم أسراره وسبر أغواره العميقة الموغلة في الغموض، والتي تأتيه بأسئلة ملغزة لا يستطيع أن يجد لها إجابة.

وهنا يأتي الفن بعالمه "الخيالي المحسوس" ليجسم رغبة الإنسان في الخلود بتسجيل (تصوير) تجاربه ذات المغزى العميق في قوالب محسوسة تثير حاسة الجمال المودعة في قلب الإنسان وتبقى بعد موت جسده، وتعطيه إجابات "وجدانية" عن الأسئلة التي عجز عقله عن الإجابة عنها ووقف أمامها حائرًا مذهولًا.

ومن ثم نفهم أن العالم الخيالى المحسوس الذي تبدعه الفنون يعد -في جوهره- إتمامًا للمعرفة البشرية بإضاءة الجوانب الخفية الغامضة التي عجز العقل عن إدراكها.

ومن ثم فإن الفن يعين الإنسان على معرفة الحياة على نحو أعمق مما يمكن للعقل (العلم) أن يصل إليه.

وتلك المعرفة "الوجدانية" هي ما تمنح الفن هويته ووظيفته الأساسية في الحياة الإنسانية.

وهي ما تميز الفن عن نشاط بشري آخر، يصنع فيه الإنسان عالمًا خياليًا محسوسًا وهو «اللعب» الذي يتم تنظيمه في صورة مسابقات الرياضة البدنية. وفي عالم ألعاب الرياضة البدنية يضع الإنسان القوانين والقواعد التي تضبط سلوك البشر داخله. ويمثل هذا العالم لحظات يهرب فيها الإنسان من ضيق وأزمات العالم "الواقعي" التي يعجز العقل عن مواجهتها والخروج من قبضتها.

الفن واللعب يشتركان في ابتكار عالم خيالي محسوس يشعر فيه الإنسان بالحرية والتخفف من أعباء وقيود الحياة الواقعية التي يتعامل معها العقل الموضوعي النفعي. وكانت تلك الصفة المشتركة السبب في الاختلاط الذي وقع فيه بعض الفلاسفة إذ ظنوا أن الفن نوع من اللعب.

ولكن الطابع المعرفي هو الذي يميز الفن عن الألعاب الرياضية البدنية، إذ يساعد الفن الإنسان على الوصول إلى فهم أعمق للحياة. أما

الألعاب الرياضية البدنية فإنها بمثابة استراحة أو هدنة مؤقتة من مشاق الحياة اليومية. وهي هدنة أو استراحة مؤقتة تساعد الإنسان على تجديد النشاط؛ فضلًا عن الفوائد التربوية والمدنية الأخرى مثل تدريب الإنسان على الخضوع للقوانين والقواعد، والسمع والطاعة، والنظام والتنظيم، وتنمية الولاء والانتماء للجماعة (الفريق والأمة). بالإضافة إلى تقوية جسم الإنسان وحمايته من الأمراض والتشوهات. وتدريب الإنسان على تلقي وقبول صدمات الحياة المحزنة مثلما يتقبل هزيمة الفريق الذي يحبه ويشجعه.

هذا بالإضافة إلى الفوائد المالية التي تعود على من يمارسون ويديرون الألعاب الرياضية على مستوى الاحتراف.

وعندما يعجز الإنسان عن مواجهة أزمات الحياة العسيرة، فإن الهروب إلى عالم آخر تصنعه الأوهام (الضلالات) ويمتلأ بالخيالات المريضة وتحفه الهواجس يصير الطريق المفتوح أمامه.

وهذا هو «الجنون». وهو عالم خطر شديد الإزعاج يزيد مشاكل الحياة صعوبة ومعاناة الإنسان شدة..

فإن الإنسان يكون في هذه الحال كالمستجير من الرمضاء بالنار!

۞ ۞ ۞

(٥)

كيف نجا موسى وهلك فرعون؟

أيقن موسى أن فرعون -رغم كل ما رأى من آيات- لن يذعن لأمر الله له بإطلاق سراح بني إسرائيل من الرق، والسماح لهم بالخروج من مصر والعودة إلى أرض آبائهم في فلسطين التي عاش فيها اسحق ويعقوب حينًا من الدهر قبل مجيئهم إلى مصر بدعوة يوسف بن يعقوب بن اسحق عليهم الصلاة والسلام.

ولذلك هيأ نفسه قومه للهجرة من مصر. وطلب منهم أن يتجهزوا لرحلة الخروج وأن ينتظروا منه إشارة البدء بالتحرك عندما يأذن الله.

وذهبت نساء بني إسرائيل إلى النسوة المصريات من جيرانهم، واستعرن منهم الحلي بحجة أنهن سيخرجن مع قومهم إلى البرية للاعتكاف للعبادة والصلاة بضعة آيام.

كانت هذه الحجة لإخفاء نية الخروج من مصر وسرقة حلي النساء المصريات اللاتي صدّقن ما قالته نساء بني إسرائيل، وقدمت لهن الحلي عن طيب نفس؛ لأنهن كن -مثل أغلب الشعب المصري- يشعرن بالعطف والإشفاق على بني إسرائيل الذين اضطهدهم فرعون،

واستعبدهم وسخرهم في بناء عاصمته الجديدة «بـر رعمسيس» مدينة رمسيس، ومدينة المخازن الملحقة بها. وكانت العاصمة الجديدة تقع فيما يسمى الآن مدينة «صان الحجر» بمحافظة الشرقية.

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الدخان: ٢٣].

فاخرج ببني اسرائيل وراء ستار ظلام الليل. واعلم أن فرعون سيطاردكم (سيتبعكم) فأسرع الخطى ولا تتردد ولا تتلكأ.

وإلى أين المسير؟

﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾ [طـــه: ٧٧] ولا تخشى غرقًا.

لن يصلوا إليكم ويمسكوا بكم. ولن تغرقوا.

فكيف ستكون النجاة؟! كيف يمكن أن يقام في البحر طريقًا جافًا صلبًا يمكن السير عليه؟!

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان: ٢٤].

ودع البحر على حاله الذي سيكون عليه وكن هادئًا مطمئنًا. فإن الله الذي سينقذك وقومك سيغرق فرعون وجنده. والسؤال كيف سيكون ذلك؟ والإجابة الآن... في هذه اللحظة مستحيلة. ولا يملك موسى إلَّا تفويض الأمر لله والثقة في رحمته وقدرته على كل شيء.

وهكذا أسرع موسى من مدينة رمسيس واتجه إلى الجنوب والشرق نحو القرن الغربي للبحر الأحمر. مؤمنًا أن الله سينقذه وقومه ويغرق فرعون وجنده هناك دون أن يعلم كيف؟!

ربما فكر وهو يحث الخطى كيف أنقذه الله من الغرق في نهر النيل، وهو بعد مولود صغير، موضوع على تابوت من الخشب...

خرج موسى يقود قومه محتمين بظلام الليل، وتغافل الجنود المصريين حراس المدينة الذين كانوا قد سئموا -مثل بقية الشعب المصري- من عناد فرعون وإصراره على إبقاء بني إسرائيل في قيد العبودية والتسخير. وكانوا مثل غيرهم من المصريين يرون أن بقاء هؤلاء العبرانيين سبب في كثير من المصائب والكوارث التي حاقت بمصر وأهلها.... الفيضانات المهلكة، والموجات الهائلة من الجراد الذي يأكل جهدهم في الأرض، والحشرات المزعجة المؤذية التي تغزو أجسادهم وأجساد مواشيهم، والضفادع التي تكاثرت حتى شاركتهم بيوتهم وأسرتهم، والدم الذي يكسو كل شيء تمتد إليه أيديهم، ثم الظلام الدامس الذي حل بأرض مصر وأخفى عنها الشمس بطبقات كثيفة من السحب السوداء، فضُرب عليهم القعود في بيوتهم لا يستطيعون عمل شيء.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ ...﴾ [الأعراف: ١٣٣، ١٣٤].

فلماذا كل هذا العناد؟ فليخرجوا من أرض مصر وليذهبوا إلى ما شاءوا من الأرض. لماذا لا ندعهم وشأنهم.

وبعد أن قدّروا أن العبرانيين قد أبعدوا في سيرهم، كان عليهم أن يبلغوا قصر فرعون بهروب المارقين؛ حتى لا يتهمهم بالتواطؤ معهم، وينكل بهم أشد تنكيل.

وملأ الغيظ قلب فرعون لهروب هؤلاء المارقين المتمردين من قبضة يده ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٥٣] يحشدون له الجنود، لينطلق في حملة عسكرية لسحق أولئك العبيد الخونة.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٥٤].

أشتات أقوام قليلوا العدد، لا يؤبه لهم ومن الميسور لنا سحقهم ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

الغيظ: شهوة لم تشبع. قد حرمونا من أن ننزل بهم الانتقام الذي يستحقونه.

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

وعلينا جميعًا أن نحذر شر هؤلاء الخائنين الذين يتعاونون مع أعداء مصر.

كانت هذه هي رسالة فرعون إلى قومه، حملها إليهم الحاشرون الذين بعثهم لحشد الجيش.

وجاءت "العيون" لفرعون بأن بني إسرائيل قد ساروا شرقًا إلى القرن الغربي للبحر الأحمر.

فحث فرعون السير إليهم بجيشه ليمسك بهم قبل أن يفلتوا من قبضته.

﴿ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ٦٠ ﴾.

خرج فرعون وجنوده يطاردون بني إسرائيل في وقت شروق الشمس، الإله المصري الذي يُعبد من دون الله. ومتجهين إلى شرق مصر. وقد أشرقت وجوه بني إسرائيل من الابتهال إلى الله طلبًا للنجاة. وأشرقت وجوه فرعون وجنوده من شدة الغيظ والغضب والرغبة الجامحة في اصطياد الفارين.

وسمع موسى ومن معه أصوات زحف جيش فرعون وهم يضربون الأرض بسنابك الخيل والعجلات الحربية. ورأوا الغبار الكثيف الذي تثيره حركة الجيش وقد أصبح الفارون في متناول اليد.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

البحر أمامنا يفتح فاهه ليبتلعنا في جوفه المظلم، والعدو الغاشم وراءنا، وقد اقترب منا وأوشك على الإمساك بنا. فأين المفر؟ ضاق الفضاء حتى أصبح الكون كأنه ثقب إبرة.

﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣].

رأت العيون ما لا يمكن تصديقه. البحر ينشق بضربة من عصا موسى. والماء يعلو مكونًا ما يشبه جبلين شاهقين يفصل بينهما طريق جاف صلب في قلب البحر.

واندفع موسى ومن معه على هذا الطريق. بينما وقف فرعون وجنوده مذهولين من هول المفاجأة التي شلت فكرهم وحركتهم.

وكاد فرعون أن يُجن. لقد ابتعد المارقون وأوشكوا على الإفلات. وما من سبيل لإدراكهم إلا بالجري وراءهم على هذا الطريق في قلب البحر. أي إله قد صنع هذا؟ من بوسعه أن يفعل ذلك؟ هل تؤيديني الآلهة وتباركني وتدعوني للانتقام من أعدائي فشقت لي هذا الطريق. لكني لا أؤمن بأي إله يمكنه أن يصنع هذا!! وإن كان لابد من إله فهو

أنا. وتذكر ما قاله يومًا "﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

ومحال أن تنكسر إرادة الإله. محال أن ينهزم. فلابد من الإمساك بهؤلاء الملاعين قبل أن يغيبوا عن عيني. وانطلق فرعون.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء: ٦٦].

وعندما صار فرعون وجنوده في وسط الطريق تهاوى الجبلان من الماء وضربت الموجات العاتية جيش فرعون وقلبت الجنود والخيول والعربات. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٨، ٧٩] وصار عليه ان ينقذ نفسه.

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

فقال الله له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٢].

هذا خطاب الله إلى روح فرعون. أما جسده فقد طاف تصديقًا لكلام الله بإنقاذه. وهو يرقد الآن في المتحف المصري بالقاهرة ملفوفًا

بأكفانه، رافعًا يده المتصلبة لينبه كل من يراه أنه كان يعاني الغرق؛ ليكون لمن خلفه (يأتي بعده) آية على صدق القرآن الكريم.

هذا ما حدث منذ ما يزيد على ثلاثة الآف عام

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

صدق الله العظيم

(٦)

من هو ذو القرنين؟

ذُكر رجل في القرآن الكريم بلقب «ذي القرنين» في قوله سبحانه وتعالى على لسان قوم من الضعفاء الأذلاء يطلبون مساعدته: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤].

تشكو تلك الأمة المستضعفة لذي القرنين من أمتين أخريين هما: يأجوج ومأجوج. كانوا يكثرون من الاعتداء عليهم وانتهاك حرماتهم. ويطلبون من ذي القرنين أن يبني لهم سدًا يحميهم من غزو وبطش هاتين الأمتين المفسدتين. ولاشك في أن ذلك الطلب إنما كان يعني أن ذا القرنين كان يحمل علمًا وخبرة كبيرة في البناء وتسخير المعادن، وكان مشهورًا بذلك. وقد مضى القرآن ليؤكد الحقيقة فبين لنا أن ذا القرنين قد أقام ردمًا (بناءً كبيرًا متراكمًا)؛ تكون من حجارة ألقيت من فوق بعضها ولم تلصق ببعضها لتكون سدًا، وأنه قد قوى بناءه (ردمه) بسبيكة من الحديد المنصهر والنحاس (القِطر). وقد استطاع أن يُعلي بناءه (ردمه) إلى حد أن يأجوج ومأجوج يستطيعوا أن يتسلقوه (يصعدوا عليه) أو

يثقبوه لكي ينفذوا من خلال الثقب (الخرق) إلى تلك الأمة المستضعفة ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ٩٧].

﴿يَظْهَرُوهُ﴾: يصعدوا فوق ظهره.

﴿نَقْبًا﴾: ثَقبًا، أي إحداث ثغرة أو فوهة طريق.

إذن، فقد كان ذو القرنين قائدًا أو سلطانًا ذا علم في تسخير المعادن. وقد كان أيضًا رجلاً صالحًا تقيًا يتلقى الوحي من الله سبحانه وتعالى.

﴿قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٦ - ٨٨].

فمن هو ذو القرنين؟

إنه الملك النبي سليمان بن داود (عليهما الصلاة والسلام)

ولماذا سماه القرآن «ذا القرنين»؟

لأنه كان ملكًا ذا سلطان على أمتين من الخلائق: أمة من الإنس وأمة من الجن. فكان عليه الصلاة والسلام ملكًا على بني إسرائيل من الإنس (البشر) وبسط سلطانه على جماعات أخرى من البشر بالإضافة إلى تسخير الجن له فكان ملكًا على جماعات منهم، بإذن الله.

والقرآن الكريم يستخدم لفظ القرن بمعنى "الأمة"، أعنى الجماعة من الخلق. يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾، فمعنى ذي القرنين هو ذي الأمتين صاحب الأمتين أو ملك الأمتين، وهما أمة من الإنس (البشر) وأمة من الجن.

وقد بين القرآن الكريم أن الله قد مكن داود أبا سليمان من صناعة صهر وتشكيل الحديد. فقال في ذكر فضل الله على داود: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ: ١٠].

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦].

في النبوة والعلم، فأخذ سليمان عن أبيه تقنية تسخير الحديد.

ثم تفضل الله سبحانه وتعالى على سليمان بعلم استخراج النحاس وصهره وتشكيله؛ فقال القرآن عن سليمان: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبأ: ١٢].

﴿عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾: مستودعات النحاس.

فما الذي أضل المفسرين من قبل عن معرفة شخصية ذي القرنين؟ وسلكوا في طرق الخرافات، واعتمدوا على روايات أسطورية وهمية لا تصمد أمام أي نقد عقلي؟! ولا تستند إلى أي علم حقيقي جدير بهذا الاسم.

الجواب: لأنهم لم يحترموا النص القرآني الاحترام الواجب لكلام الله المقدس، وافتقدوا الرؤية الشاملة لنص القرآن الحكيم الذي يفسر بعضه بعضًا. فلو أنهم كانوا قد سألوا أنفسهم: ما المعنى الذي يستخدم القرآن له لفظ "القرن"؟ وما هي ملامح شخصية ذي القرنين؟ وكيف تتبدى في النص القرآني؟ وما دلالة أن اليهود هم الذين سألوا أو أوصوا كفار العرب أن يسألوا النبي محمد ﷺ عن ذي القرنين ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾.

لو أنهم قد سألوا الأسئلة الصحيحة، وتدبروا القرآن العظيم من أجل أن يظفروا بالإجابة الصحيحة؛ لأراحوا الأجيال المتعاقبة من المسلمين الذين قرأوا أو استمعوا إلى آرائهم من الإطلاع على كل تلك السخافات السقيمة التي سودوا بها الصفحات التي كتبوا فيها قصصًا خرافية لا أصل لها، عن الاسكندر الأكبر ذي الضفيرتين الطويلتين، أو الرجل الذي ضُرب على رأسه مرتين فنبت له قرنان،.....

۞ ۞ ۞

(٧)

المائدة (العشاء الاخير للمسيح)

فى خطبتـه الأخـيرة بالهيكـل شـدَّد المـسيح النكـير عـلى الكهنـة والفريسيين، واتهمهم بالنفاق وأكل أموال الناس بالباطل، وتنبأ للشعب اليهودى بزوال مُلكه وانتزاع الملكوت (الـوحي الإلهـي) منـه وخـراب الهيكل الذى لن يبقى منه 'حجر على حجر'.

ولذلك كان التخلص من المسيح هو الشغل الشاغل للكهنة. ورأى نقوديموس -أحد كبار الفريسيين- أن يخفى المسيح فى بيتـه حتـى تهـدأ العاصفة.

فدعا المسيح الى الاختباء فى بيته مع تلامذته لعله يـستطيع أن يعقـد -بوهمه- مصالحة بين المـسيح والكهنـة. ووافـق المـسيح عـلى العـرض وذهب مع من بقى معه من تلاميذه الى بيت نقوديموس بوادي قـدرون شرق أورشليم (القدس).

لأنـه أراد أن يعطـى تلاميـذه آخـر وصـاياه؛ إذ أحـس أن موعـد مغادرته الدنيا قد اقترب.

وهنالك أدرك المسيح أن تلاميذه لا يزالون يشكون فيه رغم كل الآيات التي أظهرها الله على يده.

فقال لهم: **اطلبوا من الله باسمى أي شىءوهو يعطيه لكم** (يوحنا: ١٤).

وسكتوا ولم يعرفوا ماذا يطلبون أو بماذا يجيبون. كانوا يغرقون فى لجة الشك والحيرة.

فقال لهم: **حتى الآن لم تطلبوا شيئا. اطلبوا لتؤمنوا وليكون فرحكم كاملًا** (يوحنا:١٦).

وفكروا، ثم قالوا: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [المائدة: ١١٢].

وصدمه الطلب. وصدمته أكثر طريقة الطلب التى تقطع بقلة إيمانهم وسوء تقديرهم لقدرة الله، الذى أظهر أمامهم أكثر من غيرهم كثيرًا من آياته... لم يقولوا يا معلم أو يا نبى الله، بل قالوا يا عيسى بن مريم.

﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [المائدة: ١١٢].

﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣﴾ [المائدة: ١١٣].

ورحم عيسى قسوة قلوبهم وغلظة أفهامهم واقتنع بحججهم. أنهم خلق الله. هكذا خلقهم وهو أعلم بهم.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: ١١٤].

ولم ينتظر عيسى الإجابة؛ لأن المائدة كانت تنزل من السماء عليها من ثمار الجنة.

قوله: ﴿عِيدًا لِّأَوَّلِنَا﴾ يعنى الذين شهدوا رسالتى الأولى.

وقوله: ﴿وَءَاخِرِنَا﴾ يعنى الذين يشهدون رسالتى الثانية عند رجوعى إلى الأرض في آخر الزمان(*).

(*) اقرا القصة الكاملة لحياة المسيح فى روايتى:كلمة من الله - المسيح يبعث من جديد. من منشورات «دار الإيمان للمعرفة» ١ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر-القاهرة.

(٨)

أدلة رجوع المسيح من القرآن إلى الدنيا قبل قيام الساعة

١ - **قال الله:** ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف: ٦١].

والضمير يعود على عيسى بن مريم عليه السلام؛ لأن سياق الآيات كان عن جدال كفار قريش فى ابن مريم.

والمعنى: وإن المسيح لدليل على قرب تحقق الساعة (الزلزلة والبعث من القبور).

والأمر يشبه رؤيتك اللافتة التى تحمل اسم البلدة وانت تركب السيارة أو القطار. فحينئذ تدرك قرب وصولك إلى البلدة. وكذلك يكون رجوع المسيح علامة أو دليل على قرب وقوع الساعة.

ذلك فضلًا عن كونه دليلًا على بقاء الروح وهو قضية الإيمان الدينى الجوهرية.

٢ - يقول الله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧].

والسؤال للإنكار على الكافرين الذين يرفضون نبوة محمد. والمقصود: هل يستوي الذي يكون مستندًا على بينة جاءته من ربه مع من هو فى ضلال مبين؟!

والبينة هي القرآن والذي على بينة هو محمد ﷺ.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: ويأتى بعده رسول دليل على صدقه لأنه منسوب إليه صادرًا منه.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾: ومن قبل هذا الشاهد نزل كتاب موسى (التوراة) ليكون إمامًا ورحمة.

ولا تتحقق هذه الآية الا برجوع عيسى بن مريم عليه السلام إلى الدنيا بعد موت محمد ﷺ. فيتلو (يأتى بعد محمد) الذى هو على بينة من ربه وقد كانت التوراة (كتاب موسى) قبل المسيح فى بعثته الأولى.

ومن الواضح أنه لا يمكن فهم هذه الآية الكريمة إلا بهذا التأويل بفضل الله علينا.

٣- عندما طلب التلاميذ من المسيح مائدة من السماء ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: ١١٤].

قوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا﴾ يعنى الذين آمنوا لى فى رسالتى الأولى.

وقوله: ﴿وَءَاخِرِنَا﴾ يعنى الذين يؤمنون بي فى رسالتى الآخرة (الثانية) فى آخر الزمان قبيل الساعة.

٤- يقول الله عن المسيح: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩].

والمعنى: ولا يوجد أحد من اليهود والمسيحيين إلا سيؤمن بالمسيح على النحو المقبول من الله قبل موت المسيح. ومن المعلوم أن اليهود قد كفروا بالمسيح عندما أرسله إليهم. ولا يُعد إيمان المسيحيين بعقيدة الثالوث والصلب والفداء إيمانًا صحيحًا مقبولًا من الله. ومن ثم لا يكون ذلك الإيمان الذى ذكرته الآية إلا عند رجوع المسيح الذى لم يمت بل رفعه الله إلى السماء، ولن يموت؛ بمعنى فقد نفسه الروح ويدفن فى الارض، إلا بعدما يرجع إلى الدنيا ليتم رسالته قبيل قيام الساعة.

٥- نفى الله أن يكون اليهود قد تمكنوا من قتل المسيح أو رفعه على الصليب ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ﴾ [النساء: ١٥٧].

ثم قال: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٨].

قوله ﴿رَّفَعَهُ﴾ معناه: أصعده من الأرض إلى السماء وقرَّبه إليه فأصبح من الملائكة المقربين.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾: لايُكره على شىء.

﴿حَكِيمًا﴾: يتصرف في الأشياء بموجب علمه وعدله ورحمته ليكشف عن وحدانيته.

فالمسيح يَحيَى الآن فى السماء كملك مقرب. وسوف ينزل إلى الأرض ليتم رسالته.

٦- وعندما تضرع المسيح الى الله أن ينقذه من القتل كما يتضح من نص إنجيل يوحنا فاستجاب الله لتضرعه ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: مستردك كاملًا دون نقصان جسدًا وروحًا.

وكان هذا القول الإلهى تبشيرًا بالنجاة من الصلب الذى يكسر العظام ويشوه الجسم.

﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾: مصعدك إلى السماء لتكون ضمن الملائكة المقربين. ولا يرتفع الى الله ميت!!

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: ومعلن براءتك من الذين كفروا بك -فى الحقيقة- ولكنهم ينسبون أنفسهم إليك. إن الإنسان محتاج إلى التطهر مما يُنسب إليه من النجاسات، ويُلصق به مما يسىء إليه. والمقصود تطهيره من أهل التثليث والصلب والفداء... إلى اخر

الضلالات التى تُنسب باطلًا إلى المسيح عليه السلام. ولايتحقق شىء من ذلك إلا برجوعه وإعلان براءته (طهارته) مما نُسب إليه من أكاذيب.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: وسأمكِّن الذين يتبعونك من التغلب على الذين يكفرون بك ويحاربونك فى الطريق إلى يوم القيامة.

والمقصود أن هذه المغالبة (المقاتلة) تقع عند رجوع المسيح؛ فإنه عليه السلام لم يُحارب فى بعثته الأولى، ولكنه يُحارب الدَّجال ومن يتبعونه قبيل الساعة.

٧- وعندما حمل الملائكة البشرى الى مريم بولادة المسيح قالوا: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٦].

وإذا كان كلام الإنسان وهو طفل صغير فى المهد يُعد آية (معجزة) تدل على تأييد الله سبحانه وتعالى لهذا الإنسان؛ فإن كلام الإنسان وهو كهل لا يدل على تأييدٍ إلهي خاص؛ لأن كل الناس الأصحاء يُمكنهم الكلام وهم كهول!!

ولذلك فإن كلام المسيح وهو كهل يعد آية (معجزة) إلهية؛ لأنه يتضمن رجوعه إلى الدنيا قبل الساعة، حيث يبلغ عمر الكهولة؛ لأن من المعلوم أن المسيح غادر شهادة الدنيا إذ رفعه الله إلى السماء وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره. فتامل!!

(٩)

«الأمة الوسط»

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٣]..

"الواو" في قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أداة عطف تربط بين ما يجئ بعدها بما جاء قبلها في الآية السابقة.

و"الكاف" الأولى أداة تشبيه تصنع تماثلاً بين ما كان قبلها وما يأتي بعدها.

و"ذا" اسم إشارة إلى ما سبق.

و"اللام" أداة لتوجيه الخطاب.

و"الكاف" الثانية أداة خطاب إلى النبي محمد ﷺ الذي يكلمه الله بهذا القرآن.

والسؤال: إلام يشير اسم الإشارة «ذا»؟

والجواب إلى «الكعبة» التي جعلها الله قبلة للمسلمين يتوجهون إليها في صلاتهم عندما يقومون بين يدي الله. ومواقيت الصلاة هي الضابط الذي ينظم حياة المسلمين ونشاطهم اليومي.

ومن ثم يمكننا أن نقول: إن الكعبة هي المركز الذي تدور حوله حياة المسلمين في هذه الدنيا. ولذلك أمروا بالسفر إليها مرة في عمر كل إنسان بفريضة الحج.

لقد تحدث الله في الآية رقم ١٤٢ -التي سبقت الآية المتناولة بالتدبر- عن الكعبة. وإليها أشار باسم الإشارة «ذا».

ومن ثم يصبح معنى قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ هو: وكما جعلنا الكعبة قبلة لكم تتوجهون إليها بأبصاركم وتضبطون بها حياتكم؛ جعلناكم مثلها قبلة للأمم الأخرى، التي ينبغي أن تتوجه إليكم، وتطلب منكم الإرشاد لضبط حياتهم في هذه الدنيا.

ومن ثم يصبح معنى لفظ «الوسط» هنا: الهداية والإمامة أو القيادة التي تخول لصاحبها إرشاد الآخرين وقيادتهم على الصراط المستقيم المفضي بالسالكين فيه إلى رحمة الله في الدنيا والآخرة.

ولذلك قال بعدها مباشرة مبينًا هذا المعنى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

«﴿شُهَدَآءَ﴾»: أدلاء؛ تقودون الناس على الصراط المستقيم. فالشاهد هو الدليل الذي يضبط المسير ويقود السائرين.

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾: ويصبح رسول الله ﷺ دليلًا قائمًا يهديكم في سيركم إلى رحمة الله.

والسؤال: كم ابتعد المسلمون في هذا العصر عن هذه المكانة وغرقوا في أوحال التبعية والهوان؟!!

۞ ۞ ۞

(١٠)

«حقيقة الصيام»

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥].

ربط الله سبحانه وتعالى بين نزول الوحي الإلهي -الذي تمثل في حياة النبي محمد ﷺ في نزول القرآن على قلبه (سره الباطن)- وبين الصيام فقال: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾، يعني فمن حضر منكم بدء دخول الشهر الذي هو شهر رمضان الذي نزل فيه القرآن (الوحي) ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾، يعني فيجب عليه صيام هذا الشهر.

والخطاب للمؤمنين الذين يصدقون بنبوة محمد ﷺ، أي يصدقون بنزول الوحي الإلهي إليه. فما هو «السر» الكامن في العلاقة بين الوحي والصيام؟

الوحي كلام من الله سبحانه وتعالى يتلقاه قلب الإنسان الذي اصطفاه الله جل جلاله ليكون أهلًا للخطاب الإلهي. ومعنى هذا أن قلب (باطن) الإنسان في مقام الوحي يتحول إلى "**مَلَك**" ليتمكن من تلقي وتبين (علم) ما يلقى إليه من كلام الله. و"الملك" كائن سماوي نوراني، أعنى كائن تكونت صورته من النور ويعيش في السماء، يعبد الله خالقه بالتسبيح والتكبير والتهليل (شهادة الوجدانية) والركوع والسجود، ويتلقى أوامر الله جل جلاله لينفذها، أي يحقق علم الله بإخراجه من الغيب إلى الشهادة باختيارهم طواعية ولا يجنحون إلى العصيان: "﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦].

فالملائكة (سكان السموات النورانيون) هم من يتلقون كلام الله؛ ليقوموا بطاعة ما فيه من أوامر. وإنهم؛ لذلك بمثابة «أيدي» الله التي يحقق بها علمه.

وعندما يسمو الإنسان إلى مقام النبوة ليتلقى خطاب الله، فإن قلبه يصبح ملكًا. ومعنى هذا أن في قلب الإنسان ملك كامن يتم بعثه في مقام النبوة بنزول كلام (وحي) الله سبحانه وتعالى عليه.

وإلى تلك الحقيقة أشار القرآن الكريم في معرض رده على الكافرين الذين اعترضوا على بشرية النبي ﷺ وطلبوا أن يكون رسول الله إليهم

أو الآية التي يدقمها إليهم رسول الله دليلًا على صدقه ملكًا من الملائكة.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾

[الأنعام: ٨].

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾

[الأنعام: ٩].

طلبوا أن يكون القرآن (الوحي) الذي أنزل على قلب النبي محمد ملكًا، والمعنى أنهم يريدون "آية مرئية" يمكنهم أن يدركوها بأبصارهم (بأعينهم) لكي يؤمنوا بنبوة الرسول.

فقال الله سبحانه وتعالى ما معناه: إن استجبنا لطلبهم -على سبيل دحض حجتهم- فأنزلنا القرآن (الوحي) في صورة ملك؛ لظهر ذلك الملك في صورة البشر، فرأوه بأعينهم رجلاً مثل سائر الرجال وما استطاعوا معرفة حقيقته وعجزوا عن تمييزه عن بقية البشر. وبذلك تخفى عليهم «الآية» التي طلبوها. ونكون بذلك قد أخفينا عليهم الحقيقة التي يخفونها في أنفسهم. ألا وهي: إن أرواحهم ملائكة (رسلٌ سماويون) نزلوا بانفسهم من الغيب، إلى هذه الأجساد التي يعيشون بها في هذه الحياة الدنيا؛ على سبيل ابتلاء ما استودع في أنفسهم من علم الله سبحانه وتعالى.

إن روح الإنسان؛ أعني «السر» الذي يمنحه الحياة ليس إلا ملكًا من السماء نزل بنفس الإنسان من الغيب -حيث كانت كلمة مسطورة في كتاب العلم الإلهي: اللوح المحفوظ- إلى هذا الجسد المصنوع من طين الأرض من أجل الابتلاء والكشف عما أودع في نفس الإنسان من علم الله.

وأشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه الحقيقة بفريضة الصيام التي توجب على الإنسان أن يمتنع عن الأكل والشرب والجماع في النهار. فإنها تأمره أن يحيى على هذه الأرض في هذا الجسد الطيني حياة الملائكة الذين لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون. ومن ثم فإن فريضة الصيام تنبه الإنسان إلى أن في باطنه (قلبه) ملكًا سماويًا نزل بنفسه من الغيب إلى الشهادة في هذه الحياة الدنيا.

ومن أجل الإشارة إلى "ذلك السر" أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين به إلى الصيام في الشهر الذي نزل فيه الوحي على الأنبياء، أعني في الوقت أو المقام الذي يصبح فيه قلب الإنسان ملكًا من الملائكة الذي يستقبلون كلام الله جل في علاه؛ من أجل أن يرى الإنسان روحه طائرًا سماويًا محبوسًا في قفص من الطين الذي نسميه الجسد، فتأتي فريضة الصيام لتحرره...

(١١)

«إلا الصوم فإنه لي»

وفي نور ما قدمنا من فهم، يمكننا أن نرى ثلاث مراتب (درجات) للصيام. ينبغي أن تفضي الأدنى منها إلى الأعلى في حال المؤمن الصادق، السالك في الطريق إلى الله.

(١) الدرجة الأولى: **صيام الجسد**.

وهو الامتناع عن تناول الطعام والشراب والجماع في نهار اليوم بدءً من أول ظهور النور في الفجر، إلى بدء غياب النور بغروب الشمس؛ طاعة لأمر الله الذي أوجب على المؤمن الصيام.

والمقصود من هذا الصيام هو تقوية إرادة المؤمن على طاعة الله سبحانه وتعالى، أعنى زيادة قدرته على ضبط شهواته حتى لا تبعثه -إن أطلق لها العنان ولم يكبحها- إلى معصية الله جل جلاله.

هذه الدرجة الأولى من الصيام ليست مقصودة لذاتها، أعني ليست المراد من فرض الصيام.

ولذلك عندما جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه أن امرأتين

من أهله قد أوشكتا على الهلاك (الموت) من شدة الصيام، وعدم قدرتهما على تحمل الجوع والعطش إلى غروب الشمس، ويطلب منه أن يمنحهما الرخصة في الإفطار. فإن رسول الله أمره أن يحضرهما بين يديه. فلما جاءتا، أمر بوعائين. ثم طلب منهما أن تقيئا "قيئا!".

فأفرغت المرأتان ما في معدتيهما فإذا هو لحم نتن متعفن وقيح ودم فاسد.

فقال رسول الله ﷺ معلمًا لنا: **لقد صامتا عما أحل الله** (الطعام والشراب) **وأفطرتا على ما حرم الله** (الغيبة).

لأنهما ظلتا طوال النهار في صيامهما الظاهر تنهشان في أعراض (سمعة) الناس وتسيئان إليهم. ولقد حرم الله سبحانه وتعالى الغيبة وهي ذكر الناس بالسوء في غيابهم. ووصف من يرتكب هذه المعصية بأنه يقتل أخاه ثم يجلس ليأكل لحمه وهو ميت «﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال ﷺ: **"رُبَ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر"** الحديث رقم ٣٤٨٨ في كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير.

وغني عن البيان أن هذا الصيام لا يعتد به عند الله، فهو عمل غير

مقبول ولا يثاب الإنسان عليه. بل يعاقب وإن ظن نفسه طائعًا محسنًا. فهذا صيام اسم بلا مسمى أو جسد ميت بلا روح.

(٢) الدرجة الثانية: **صيام** (امتناع) **القلب عن نية المعصية**. وهو الغاية التي ينبغي أن تصل إليها الدرجة الأولى، وإلا فلا معنى لها.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

يبين أن الصيام فريضة كتبها الله على جميع الأمم، ومن ثم فإن الصيام من أسس بناء الدين في كل الرسالات الإلهية، والغاية منه تحقيق "تقوى الله" التي تعنى حماية النفس الإنسانية من عذاب الله بطاعته. ومن ثم فإن تطهير القلب من نية معصية الله هو غاية الصيام.

وهذه الدرجة من الصيام هي صيام الملائكة "الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون"

ولذلك قال رسول الله: **إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث، ولا يجهل، فإن امرؤ شاتمه أو قاتله، فليقل: إني صائم إني صائم**. الحديث رقم ٧٨٣ نفس المصدر.

فنهى رسول الله الصائم عن الرفث وهو ملاعبة النساء والحديث عن الجماع، وهو ما قد يبعث الإنسان على الجماع، ومن ثم يقع في معصية

الله بمخالفة حكم الصيام.

ونهاه عن الجهل، وهو الغضب الذي يبعثه على الاعتداء على الآخرين، أي الوقوع في خطيئة الظلم.

بل نهاه عن الرد على الإساءة بمثلها، فإن شتمه أحد، او اعتدى عليه وقاتله، فليذكر نفسه بأنه صائم حتى لا يرتكب معصية. بل يجتهد في الرد على الإساءة بالإحسان إلى من أساء إليه. وهو خلق الملائكة.

(٣) الدرجة الثالثة: **صيام الروح عن رؤية غير الله**. وهو ما يسمى «**الصوم**» وهو صيام العارفين بالله الذين هم في رتبة الملائكة المقربين. وهو الغاية العليا من فريضة الصيام.

قال مسيح الله عيسى بن مريم لأمه وهو بعد طفلاً حديث الولادة: "﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ [مريم: ٢٦].

قال "صومًا" ولم يقل صيامًا، لأننا هنا بصدد صيام الروح وهو الصيام الحقيقي أو حقيقة الصيام. فرغم أنها تأكل وتشرب كما أوصاها الله سبحانه على لسان مولودها، فإنها ستقول للمتطفلين الفضوليين من البشر الذين قد يرونها ويلحون في سؤالها عن سرها بأنها قد نذرت للرحمن أن تصوم صيام الروح؛ ولذلك فإنها ستمتنع عن الكلام مع البشر.

وقوله: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾، يعني أنها كان بوسعها أن تكلم من هو فوق البشر وهم الملائكة والمقربون منهم و«روح الله» فوق الجميع.

قال الله سبحانه وتعالى في حديثه القدسي: **"كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء الله إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به. يدع شهوته وطعامه من أجلي.**

للصائم فرحتان: فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه

ولخلوف فمه أطيب عند الله من ريح المسك" الحديث رقم ٤٥٣٨ من نفس المصدر.

وقوله: **إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به**، معناه: إلا الصوم فإنه لا ينسب إلا إلى الله، لأنه صيام الروح والروح من عند الله، وهو عمل يفضي بالعبد إلى الله؛ فيكون الله سبحانه وتعالى هو جزاء الصائم الذي صام صيام الروح. وهو جل في علاه الغاية التي ليس ورآءها شيء.

۞ ۞ ۞

(١٢)

«وبينات من الهدى والفرقان»

وصف الله سبحانه وتعالى شهر رمضان بقوله:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾: بيانًا وإرشادًا للناس إلى الصراط المستقيم الذي يجب عليهم أن يسيروا فيه لكي يظفروا برحمة الله في الدنيا والآخرة.

فلفظ «هدى» هنا يعني دلالة الناس وتوجيههم إلى الصراط المستقيم، وهو بيان يتوجه لعموم الناس من أجل حثهم على الدخول في الإسلام لله، والإيمان بالقرآن الذي يأخذ بأيديهم إلى رحمة الله سبحانه وتعالى. ولذلك جاء باللفظ نكرة فقال "هدى" ليفيد العموم وبين أنه موجه لكل الناس.

وقوله: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ معناه: وأنزل في رمضان آيات بينات صدرت من «الهدى والفرقان» اللذين منحهما الله جل جلاله لعباده المؤمنين الذين قبلوا رسالته واستجابوا لندائه.

فما هو الهدى وما هو الفرقان؟

أما الهدى فهو الإعانة التي يقدمها الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين الذين دخلوا في الإسلام، وبدأوا السير على الصراط المستقيم؛ من أجل أن يشجعهم على المضي قدمًا، ويثبت أقدامهم في السير على الصراط المستقيم، ويقوي إيمانهم ويحفزهم على الاجتهاد في الطاعة (العبادة) حتى يصلوا إلى غايتهم المرجوة.

فالهدى هو هداية مخصوصة بأهل الإيمان -ولذلك جاء باللفظ مُعرفًا "الهدى"- تهدف إلى مساعدة المؤمنين على الاجتهاد في طلب رحمة الله.

ومن آيات (علامات) هذا الهدى ما أخبر عنه رسول الله ﷺ في أحاديث تبين تشجيع الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين على بذل المزيد من الجهد في الطاعة. ومنها قوله:

(١) **أتاكم شهر رمضان، شهر مبارك فرض الله عليكم صيامه.** ثم شرح بعض معانى بركة رمضان فقال:

إذا كان أول ليلة من شهر رمضان، فُتحت أبواب الجنة، فلم يغلق منها باب، وغلقت أبواب النار، فلم يُفتح منها باب، وصُفدت مردة الشياطين، وفيه ليلة هي خير من ألف شهر، من حُرم خيرها فقد حُرم. وينادي منادٍ كل ليلة: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر. ولله

عتقاء من النار. وذلك كل ليلة.

وقوله: **"فُتحت أبواب الجنة"** معناه: يَسَّر الله سبحانه وتعالى على المؤمنين أداء الأعمال الصالحة (الطاعات)؛ لأنها الأبواب التي يدخل منها المؤمنون إلى الجنة التي فيها رحمة الله بالحياة الآخرة. أبواب الجنة هي الطاعات.

وهذا العمل الإلهي يخص المؤمنين فقط؛ لأنه من آيات "الهدى" الذي يعين الله به المؤمنين. فليس من المقبول أن نتوهم أن يفتح الله أبواب الجنة للكافرين؛ لأنه جل جلاله قد حرم على الكافرين دخول الجنة.

وقوله **"وغُلقت أبواب النار"** معناه أن الله سبحانه وتعالى يكره المؤمنين في ارتكاب المعاصي، ويعسر عليهم -بلطائف صنعه- اقتحام لجتها المهلكة.

وغني عن البيان أنه عمل إلهي يخص الله به المؤمنين من عباده دون الكافرين. أبواب النار هي المعاصي.

قوله: **"وفيه ليلة هي خير من ألف شهر"** يقصد به ليلة القدر التي تكون في إحدى ليالي العشر الأواخر من رمضان. ومعناه: إن العمل الصالح الذي يقوم به المؤمن في هذه الليلة ينال ثوابًا عليه أفضل أو أكثر

من عمله لمدة ألف شهر في غير شهر رمضان. وفي هذا تحريض عظيم على الاجتهاد في العبادة.

وقوله **"من حُرم خيرها فقد حُرم"** معناه: إن من يحرم من خير ليلة القدر يُعد في الحقيقة محرومًا من رحمة الله.

وقوله **"وينادي منادٍ كل ليلة -من ليالي رمضان- يا باغي الخير أقبل** (تشجع وتقدم) **ويا باغي الشر أقصر** (تقاعس وتأخر) معناه: إن الله يرسل ملكًا من السماء يطوف بالمؤمنين على الأرض، فيُلقي في قلوبهم الإقبال على الطاعة والتقاعس والقعود عن المعصية. وذلك من آيات "الهدى" الذي يتفضل الله به على المؤمنين من عباده.

(٢) من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه. ومن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه. ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه

(٣) واشتكت امرأة من الأنصار إلى رسول الله أنها لم تستطع أن تحج معه حجة الوداع، فقال لها: **إذا كان رمضان فاعتمري فيه، فإن عمرة في رمضان تعدل حجة معي.**

تعدل: تساوي في ثوابها.

(٤) وأخبر رسول الله أن أداء الصلاة المفروضة في رمضان يعدل في الثواب القيام بسبعين فريضة في غير رمضان. والقيام بالصلام النافلة يعدل القيام بالفريضة في غير رمضان وخير رمضان أوسع من أن يحصى هنا في هذا المقام.

أما «الفرقان» فهو السلطان الذي يمنحه الله لعباده المؤمنين في شهر رمضان. إذن فهو التمكين للمؤمين في الأرض بنصرهم على أعدائهم الذين يقاتلونهم.

يقول الله سبحانه وتعالى مخاطبًا المؤمنين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

«﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾»: يمكن لكم دينكم الذي ارتضى لكم، فيمنحكم سلطانًا (سلطة سياسية) على الأرض تتمكنون بها من إقامة دينكم.

ولذلك سمى القرآن الكريم معركة بدر الكبرى «يوم الفرقان»

﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنفال: ٤١].

﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾: يوم معركة بدر الكبرى، في السابع عشر من شهر رمضان في العام الثاني بعد الهجرة. وكانت أول معركة حربية، وقع فيها قتال حقيقي بين المسلمين (المهاجرين والأنصار) وبين كفار قريش. وأسفرت عن انتصار ساحق للمسلمين وهزيمة فادحة للكافرين على غير المتوقع، بالنظر إلى حسابات القوى المادية. ولذلك ذكر في الآية الملائكة الذين أنزلهم الله لينصروا المؤمنين على أعدائهم فقال: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾. يقصد الملائكة الذين نزلوا ليحاربوا في صفوف المؤمنين.

وجاء التاريخ ليقدم لنا البرهان الساطع على صحة القرآن، وصدق نبي الله ﷺ؛ إذ وقعت أهم المعارك الحربية التي حفظت الامة الإسلامية حاملة الرسالة الإلهية في شهر رمضان. بدءً من معركة بدر الكبرى التي أكسبت المسلمين أول دولة (سلطة سياسية) على الأرض، إلى معركة فتح مكة -التي وقعت في العشرين من شهر رمضان من العام الثامن بعد الهجرة، والتي كانت إيذانًا ببسط سلطة الإسلام على كل الجزيرة العربية. وليس انتهاءً بمعركة السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م والتي وقعت في العاشر من رمضان، وأدار فيها العرب أول معركة حربية ضد دولة اليهود الصهاينة في إسرائيل.

ولن تكون تلك المعركة آخر بينات "الفرقان". فإن تاريخ -مرآة الإرادة الإلهية- يحمل في غيب المستقبل الكثير، الذي سيتوالى ظهوره ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

صدق الله العظيم

۞ ۞ ۞

(١٣)

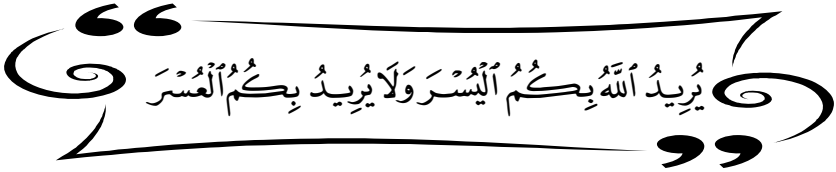

(تاريخ فريضة الصيام في الإسلام)

لا يعلم أكثر المسلمين أن الصيام قد فُرض في العام الأول بعد الهجرة؛ بسبب عجز المفسرين والفقهاء عن إدراك معاني ألفاظ القرآن الكريم، رغم الدعوى العريضة بالتعمق في العلم التي صدعوا بها رؤوسنا وسودوا بها آلاف الصفحات!!

نزل الأمر بالصيام أول مرة في تاريخ الأمة الإسلامية في العام الأول الهجري في آخر شعبان بعد حوالي خمسة أشهر من هجرة رسول الله إلى المدينة المنورة، عندما نزلت الآيتان:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤].

قوله «﴿كُتِبَ﴾» يعني فُرض، أي أوجب عليكم.

وقوله «﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾» يعني عددًا قليلاً محددًا من الأيام.

وهي أيام الليالي البيضاء التي يكون فيها القمر بدرًا، وهي الليالي الثالثة عشرة، والرابعة عشرة، والخامسة عشرة من كل شهر عربي (قمري). ومن ثم فإن المقصود بالأيام المعدودات هو الأيام ١٤، ١٥، ١٦ من كل شهر عربي. هذه الأيام كانت هي المأمور بصيامها خلال العام الأول الهجري.

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى العذر لمن كان مريضًا أو على سفر في تلك الأيام وأمره أن يصوم أيامًا أخرى عوضًا عنها عندما يزول العذر.

وكان الأمر بالصيام في ذلك العام الأول فيه نوع من التخفيف أو التيسير مراعاة لغرابة وشدة الصيام في المجتمع العربي الجاهلي.

ولذلك سمح للذين يجدون مشقة في الصيام بقوله ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أن يتخففوا من حمل مشقة الصيام. ولكن على أن يطعم كل واحد منهم مسكينًا يحتاج إلى من يمده بالطعام. فكان إطعام مسكين عن كل يوم لا يصومه الذي يجد مشقة في الصيام رخصة تعفيه من الصيام.

فإن رأى أن يطعم أكثر من مسكين واحد نظير كل يوم لا يصومه، كانت هذه الزيادة أفضل له؛ لأنها تمنحه ثوابًا أكثر.

هذا هو بيان قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾.

والمعنى فمن تطوع بإطعام أكثر من مسكين، فإن تطوعه يكون خيرًا له عند ربه، إذ يمنحه ثوابًا أكبر.

ولكن اختيار الصيام أفضل للإنسان من إطعام المساكين. هذا بيان قوله "﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾".

والمقصود أنه في هذا الطور الأول من فرض الصيام كان ثمة نوع من الاختيار يمكن الإنسان من عدم الصيام مقابل إطعام المساكين. ولكن الله بموجب رحمته بالإنسان يبين أن الصيام أفضل.

وذلك؛ لأن الصيام يزيد من قدرة الإنسان على ضبط شهواته وهذا أمر ضروري لازم له من أجل أن يتمكن من مواصلة السير على الطريق إلى الله، بل على النجاح في حياته الدنيا. فلا مناص للإنسان من إرادة قوية تضبط شهواته بحدود الدين ومقتضيات العقل وتنظيم حياته إذا أراد الفلاح في الدنيا والآخرة، ولذلك ختم الآية "﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾" والمعنى: إن كنتم تتبينون حقائق الحياة وقوانين تحقيق النجاح.

واستمر الأمر بصيام ثلاثة أيام من كل شهر عربي لمدة عام كامل، حتى جاءت نهاية شعبان من العام الثاني بعد الهجري فنزلت الآية:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[البقرة: ١٨٥]

هنا -في شعبان من العام الثاني بعد الهجرة- أصبح الأمر بالصيام لمدة شهر كامل، هو شهر رمضان بعد أن كان الصيام في العام الاول ثلاثة أيام فقط من كل شهر.

وهنا تحول الأمر بالصيام إلى فرض مؤكد، ليس فيه اختيار. ولذلك خلت الآية من الحديث عن الذين يطيقونه؛ فلم يعد الأمر متروكًا لتقدير الإنسان هل يمكنه تحمل مشقة الصيام أم أنه يجد صعوبة كبيرة في القيام به. لم يعد مسموحًا للإنسان بالإفطار في شهر رمضان إلا إذا كان مريضًا أو على سفر، فلا يستطيع الصيام.

المريض والمسافر ومن كان في حكمهما، فقط هم من يتم إعفاؤهم من فريضة الصيام، على أن يقوموا بصيام عدد من الأيام يساوى عدد الأيام التي أفطروا فيها في شهر رمضان.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

ولما كان تصعيد الامر بالصيام من ثلاثة أيام من كل شهر عربي إلى صيام شهر كامل يحمل مظنة التعسير على المؤمنين، جاء قول الله سبحانه وتعالى ليمحو هذه الشبهة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.

إرادة الشيء معناها جعله غاية لابد من الوصول إليه، ولا تهرب من تحقيقه.

وإرادة الله سبحانه وتعالى بالمؤمنين اليسر تعنى التخفيف عنهم والرأفة بهم وإزالة المعوقات والصعوبات من طريقهم.

والمقصود بيان إن الأمر بالصيام لا يعني إرادة تجويع المؤمنين وحرمانهم من الماء ومتعة الجماع؛ بل يعني تمكينهم من القدرة على ضبط شهواتهم؛ ومن ثم مساعدتهم على السير في الطريق إلى الله، وفي نجاح مسعاهم في الدنيا وبلوغهم أهدافهم. فلا نجاح في الدنيا والآخرة إلا بإرادة قوية وعزيمة على مواجهة الصعاب.

وأكد سبحانه وتعالى إرادة التيسير بقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.

ولذلك حملت كل أوامره قدرًا كبيرًا من التيسير على أصحاب الأعذار الذين يجدون مشقة حقيقية في القيام بالفروض التي اوجبها عليهم. وعلى سبيل المثال:

* من لم يجد الماء أو كان في استعماله ضرر عليه أبيح له التيمم (التطهر بتراب طاهر).

* من لا يستطيع القيام أبيح له الصلاة جالسًا أو راقدًا.

* من كان مريضًا أو على سفر أبيح له الإفطار في نهار رمضان.

والأمر أوسع من أن يُحصى في هذا المقام.

﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾: ولتصوموا عددًا من الأيام في غير رمضان تساوي عدد الأيام التي أفطرتم فيها في رمضان حتى تكملوا عدد أيام الصيام إلى عدد أيام شهر رمضان. فلا مناص من صيام شهر رمضان كاملاً بلا نقصان

﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾: ولترفعوا مكانة الله -جل في علاه- في قلوبكم، فوق أن تظنوا أنكم تستطيعون الإحاطة بوصفه أو معرفة كنه ذاته، أو الإشارة إليه في شيء، يمكن أن تصل إليه حواسكم. وفي كلمة واحدة "ولتسبحوا الله"؛ لأنه هداكم إليه وما كان في وسعكم أن تهتدوا إليه لولا أن هداكم إليه بوحيه إلى أنبيائه.

«**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم**».

وفي بدء الأمر بالصيام كان الجماع (المعاشرة الزوجية) محرمًا في الليل، فضلاً عن تحريمه بالنهار بموجب تعريف الصيام نفسه. وكانت

مدة الصيام تمتد من نوم الإنسان حتى غروب شمس اليوم التالي.. فإذا نام الإنسان الذي يريد الصيام في الغد، لا يحق له تناول أي طعام أو شراب حتى تغيب شمس الغد.

ولاشك في أن كثيرًا من المؤمنين كانوا يرغبون في جماع أزواجهم في الليل، كما كانوا يحتاجون إلى تناول شيء من الطعام أو الشراب إذا استيقظوا في الليل من النوم، خاصة إذا كانوا مرهقين فغلبتهم أعينهم فاستغرقوا في النوم قبل أن يتناولوا ما يكفيهم من الطعام أو الشراب.

ولا شك في أن الصيام على هذا النحو كان يشق على كثير من المؤمنين، وكانت حاجتهم إلى الطعام أو الشراب أو الجماع تبعث بعضهم إلى مخالفة حكم الصيام فيتناولون ما يشتهون من الطعام والشراب أو يجامعون أزواجهم وهم يشعرون بالإثم، وأنهم قد خانوا ما عاهدوا الله عليه عندما عزموا الصيام ويشعرون أنهم مخادعون منافقون عندما يتظاهرون بالصيام في النهار أمام الآخرين، بالرغم من أنهم قد جامعوا أزواجهم أو تناولوا طعامًا وشرابًا بالليل.

ومن أجل التيسير على المؤمنين ورفع الحرج عنهم؛ ليؤدوا فريضة الصيام دون مشقة نزل التخفيف الإلهي في الآية التي تقول: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ

كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

[البقرة: ١٨٧].

قوله ﴿أُحِلَّ﴾ يعني أنه كان محرمًا قبل نزول هذه الآية.

﴿الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ ملاعبة نسائكم المفضى إلى جماعهن. فالمقصود إباحة الجماع في ليلة الصيام.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾: تعبير بلاغي بديع، يقول إن المرأة بالنسبة للرجل بمثابة ثوب يرتديه ويلف به جسده. والرجل بالنسبة إلى المرأة بمثابة ثوب ترتديه وتحيط به جسدها. وإذا كان الثوب (اللباس) يستر عورة الإنسان فيحميه من الفضيحة والمهانة، كما يحميه من أذى البرد والحر، فإن النكاح (المعاشرة الزوجية الشرعية) تحمى الإنسان من الوقوع في خزي الزنا، ووحشة العزلة وعذاب النار في الآخرة.

ويبين الله سبحانه وتعالى أنه لم يكن يخفى عليه ما يعانيه المؤمنون من ضيق واتهام النفس بالخيانة والكذب بسبب عجزهم عن القيام بفريضة الصيام على النحو الذي كان يمنعهم من الجماع والاكل بعد

النوم في الليل ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: فعاد إليكم برحمته، ولم يعاقبكم على عصيانكم.

﴿فَٱلْـَٰٔنَ﴾ -بعد تخفيف الفريضة- يمكنكم أن تجامعوا نساءكم وأن تطلبوا اللذة التي أتاحها الله لكم. ﴿بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ دون حرج ولا تأثيم.

عبر عن الجماع بـ«المباشرة» التي تعني تلامس البشرة (الجلد). واعتبر اللذة الناتجة عن الجماع (المباشرة) عطاء منحه الله لعباده.

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾.

هنا أصبح الصيام يبدأ من طلوع الفجر، وليس من الدخول في النوم. ومن ثم أصبح مباحًا للإنسان الذي نوى الصيام أن يتناول الطعام والشراب في أي وقت من الليل حتى يطلع الفجر.

والخيط الأبيض هو ضوء النهار والخيط الأسود هو ظلام الليل. وفي هذا التعبير البلاغي (المجازي) إشارة إلى أن أحداث الدنيا التي تقع في النهار والليل إنما هي بمثابة لباس (ثوب) تنسجه الإرادة الإلهية أو يد الله بخيوط بيضاء اللون (حوادث مفرحة) وخيوط سوداء اللون (وقائع محزنة). ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾.

وقوله ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ يعني من انفجار (انتشار) النور في أول النهار عندما ينتشر عند الأفق فتبدأ الأشياء في التبين، خارجة من ظلام الليل. هذه هي اللحظة التي يبدأ عندها الصيام.

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ﴾ ثم واصلوا الصيام حتى تبلغوا به نهايته وهي أول الليل. وقوله إلى الليل معناه أن الليل يبدأ بغروب الشمس حيث ينتهي الصيام ويباح الإفطار.

ولنلاحظ هنا أنه سبحانه وتعالى قال ﴿أَتِمُّوا۟﴾ في حين أنه قال عند الحديث عن أيام الصيام: "ولتكملوا العدة".

ولفظ التمام أو الإتمام يُستعمل عندما تنظر إلى الشيء الذي يتناوله الحديث في مجموعه، أعنى في كامل كيانه. فعند الحديث عن الصيام قال ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ﴾ والمعنى: ابلغوا الصيام إلى غايته التي ينتهى إليها وهي أول الليل أي غروب الشمس.

أما عند الحديث عن عدد أيام الصيام قال: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ لأنه سبحانه وتعالى نظر إلى أجزاء الصيام، أعنى إلى عدد الأيام التي يجب صيامها. والإكمال يعني سد النقص في أجزاء الشيء أو مكوناته حتى يصل إلى كامل كيانه أو بنائه.

ولما كان الصيام -في حقيقته- هو تنبيه قلب الإنسان إلى أنه يحتوى على ملك (رسول سماوي نوراني) هو روحه، الذي وهبه الحياة وطار بنفسه من الغيب إلى الشهادة؛ لذلك سن الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين الاعتكاف في المساجد في شهر الصيام، من أجل أن يستحضروا بأنفسهم تجربة عزلة النبي في الغار حين جاءه وحي الله، وهو الوقت الذي انبعث فيه الملك الكامن في قلب النبي من أجل أن يتمكن من تلقي الخطاب الإلهي عبر الملائكة أو من روح الله مباشرة.

وبهذا نفهم أن توقيت سنة الاعتكاف بالمساجد في شهر الصيام، إشارة أخرى إلى الارتباط الوثيق بين الصيام والملك الكامن في قلب الإنسان، الذي هو روحه (سر حياته).

وما دام المعتكف قد نوى (قصد) هجر الحياة الدنيا إلى حين، والتبتل (الانقطاع) لعبادة الله في المسجد، الذي أصبح بالنسبة إليه بمثابة غار حراء للنبي، فلا يليق به أن يصطحب أزواجه أو يجامعهن في المسجد أثناء اعتكافه؛ لأن مباشرة النساء هي أشد ما يربط الرجل بالحياة الدنيا، ويشد وثاقه إلى الأرض. وذلك لا يليق بالملك الذي يتطلع أن ينطلق إلى السماء.

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ عذابه بطاعته.

(١٤)

وما أدراك ما ليلة القدر

القَدْر -بإسكان الدال- هو الجزء من مجموع الشيء؛ أي بعض من كل.

والمقصود هنا الجزء من مجموع العلم الإلهي، الذي سجله الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.. ذلك الجزء الذي يأذن الله بالكشف عنه في ليلة من العشر الأواخر من شهر رمضان من كل عام قمري (هجري).

هذه الليلة هي ليلة القدر التي وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾: بما أذن (أباح ورضى) رب الملائكة والروح أن يكشف عنه.

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾: من مجموع علمه الذي أودعه في كتابه اللوح المحفوظ وسجل فيه كل ما يريد خلقه (إظهاره) في هذا الكون المشهود (هذه السماوات وهذه الأرض). فذلك الكتاب يحتوى على كل أمره أي مجموع ما أراد خلقه.

وفي هذه الليلة من كل عام يأذن الله سبحانه وتعالى بالكشف عن قدر (جزء) من مجموع إرادته (من كل أمر) تتنزل به الملائكة والروح من السماوات إلى الأرض.

والملائكة هم الكائنات النورانية سكان السماوات، أعنى المخلوقات التي صنعت أجسامها (صورها) من النور، والذين يعدون بمثابة أيدي الله جل جلاله وجنوده الذين ينفذون إرادته (يحققون علمه).

والروح «روح الله» هو المخلوق الأول الذي كان انبعاثه من الغيب الوسيلة التي كشف الله سبحانه وتعالى عن علمه؛ لأن النور الذي انبعث من انطلاقه من الغيب كان الكاشف لما احتوى عليه علم الله القديم قبل خلق السماوات والأرض. وروح الله هو المعبر عن إرادته سبحانه وتعالى، أعنى هو الحامل لما يريد الله إظهاره.

فعندما يأذن الله بالكشف عن شيء (قدر) من علمه، فإن النور ينبعث من روح الله وينزل على صفحة من كتاب العلم الإلهي؛ فيكشف عن المكتوب فيها، فتعلمه الملائكة الذين يُتاح لهم الإطلاع عليه، وتؤمر الملائكة حملة الأقلام تدوينه في صحف. ثم يسلمون تلك الصحف إلى الملائكة المكلفون بتنفيذ الأمر، فينزلون بتلك الصحف أو تلك الأوامر إلى الأرض ليقوموا بتدبيرها وتحقيقها.

وهذا التنزل أعني الكشف عن العلم الإلهي عمل مستمر إلى يوم القيامة، حين يتم الكشف عن كل ما احتواه اللوح المحفوظ. ولذلك قال "﴿ نَتَنَزَّلُ ﴾" أي تتنزل بصيغة المضارع الذي يدوم عمله إلى وقت نهاية هذا الكون، أعني رجوع هذه السماوات وهذه الأرض إلى الغيب الذي كانت فيه قبل خلقها.

وعندما يتنزل الملائكة من السماوات بالقدر من علم الله الذي أتاح لهم روح الله الاطلاع عليه والقيام على تنفيذه على الأرض، فإنهم يكشفون للنبي الأمي القائم دومًا بين يدي الله بما أذن الله له بعمله.

ولذلك قال في وصف هذه الليلة بأنها: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾.

والسؤال سلام لمن أو على من؟

فليس من المعقول ولا المقبول أن تكون ليلة القدر سلامًا على المجرمين البغاة الذين يفسدون في الأرض وينتهكون الحرمات. وعلم الله ينزل بالحروب والأوبئة والكوارث كما ينزل بالرحمة.

والجواب: سلام ينزل بالكشف عن علم الله على قلب النبي الأمي القائم دومًا بين يدي الله. والسلام هو ثمرة انتفاء (زوال) الصراع، ودوام الأمن (زوال الخوف) والسرور واليقين بعدل الله (زوال الشك في وجود الظلم) وفي كلمة واحدة هو الطمأنينة التي تنزل في قلب النبي

كلما كُشف له عن علم الله. ومن ثم فإن النبي ﷺ كان حاضرًا بين يدي الله قبل أن يولد من رحم آمنة بنت وهب في مكة، وسيبقى حاضرًا بقلبه (سره الباطن) بعد أن دُفن بجسده في المدينة المنورة (يثرب) وسيرتقي قلبه في كل عام درجة في ليلة القدر بتنزل الملائكة والروح بقدر من علم الله حتى يكتمل علمه، وتتم قراءة «ذلك الكتاب» ويندمج النبي الأمي ويتوحد مع روح الله راجعًا إلى حقيقته في يوم القيامة "وجمع الشمس والقمر".

ومن السلام الذي يتنزل على قلب النبي الامي يفيض على قلب كل مؤمن يسير على الصراط المستقيم مهتديًا بالسراج المنير.

(١٥)

المؤمن يموت مرة واحدة والكافر مرتين

حذر الله سبحانه نبيه ﷺ من الميل إلى أهواء الكافرين أدنى ميل بقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

قوله: ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ معناه: اذن، لأحييناك مرتين وأمتناك مرتين.

والمقصود: لو وافقت المشركين فى ضلالهم ومِلت إليهم فى فساد عقيدتهم وتخليت عن القرآن وغيَّرت فيه؛ فإننا سنعاملك معاملة الكافرين فنحييك مرتين ونميتك مرتين؛ فتعانى ألم نزع الروح (سر الحياة) من نفسك مرتين.

وبيان ذلك أن جميع الناس المؤمنين والكافرين يذوقون طعم الموت المرير مرة واحدة فى هذه الحياة الدنيا. وهذه هى الموتة المشهودة التى يستوى فيها الكافرون مع المؤمنين والتى ذكرها الله فى قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ

ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وهذه الموتة الأولى التى يعانيها كل البشر بل كل المخلوقات.

وعندما تقوم الساعة يُطلق "روح الله" نفخة الحياة على المخلوقات التى ماتت ودفنت تحت الثرى؛ فتحيا وتقوم ويُبعث من فى القبور. وهذا الإحياء الأول الذى يذوقه ويظفر به كل الخلق ويستوى فيه المؤمنون والكافرون. وهنالك يتفرقون.. فيذهب المؤمنون الى جنات النعيم التى يتمتعون فيها برحمة الله مادامت هذه السموات وهذه الأرض المشهودة. ويُساق الكافرون الى نار "العذاب القريب" التى يعانون فيها من غضب الله مادامت هذه السموات وهذه الارض (هذا الكون المشهود) والتى ستشهد -حينذاك- التدمير وتهاوى البنيان، عندما ينفخ إسرافيل فى الصور (البوق) نفخة الصعق التى تُتِم هدم هذا الكون ويموت بها الكافرون وهم فى النارالأولى (نار العذاب القريب) للمرة الثانية ويُدفنون فى الأجداث التى هى قبورهم فى النار. هذه هى الموتة الثانية التي يكابدها الكافرون وينجو من ذوقها المؤمنون.

ثم يرسل الله مطرًا كأنه الطل يطفىء نار العذاب القريب، وتنبت منه أجساد الكافرين كما ينبت البقل بماء المطر من الأرض.

والسؤال مم ينبت جسد الإنسان بعد أن يموت؟

والجواب من عظم صغير بالغ الدقة يبقى من جسده بعد أن تأكله الأرض وهو عجب الذنب (آخر العمود الفقري). ثم ينفخ "روح الله" نفخة الحياة الثانية فيدخل "سر الحياة" فى تلك الأجساد النابتة ويذوق الكافرون مرة أخرى (ثانية) العودة إلى الحياة. ذلك هو الإحياء الثانى الذى يظفر به الكافرون ويخرجون به من الأجداث (قبور نار العذاب القريب) بعد أن يتم هدم هذا الكون بنفخة الصعق. وبين النفختين: نفخة الصعق ونفخة الإحياء الثانى أربعون سنة ينزل فيها المطر الذى يشبه الطل ليهيئ أجساد الكافرين لتلقى نفخة الإحياءالثانى.

فأما المؤمنون -الذين يكونون فى جنات النعيم- فإن نفخة الإحياء الثانى من "روح الله" تكون بالنسبة إليهم نفخة "إفاقة" تخرجهم آمنين من جنات النعيم إلى لقاء الله حيث يقومون بين يديه سبحانه وتعالى للحساب اليسير وتلقي الكتاب باليمين حيث يقودهم الى «جنات عدن» التى يظفرون فيها بالخلود. وأما الكافرون فإنهم يُساقون إلى الحساب العسير بين يدي ربهم لينالوا كتبهم التى تسوقهم الى جهنم حيث يخلدون فى العذاب. وهنالك فى جهنم يعلو صراخهم: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

۞ ۞ ۞

فهرس الكتاب

تقديم ٥
معنى لفظ «اليقين» ٦
الكبر هو مرض القلب المانع من اليقين ٢٢
لقاء الله ٢٨
الإحسان الطريق إلى رؤية الله ٣٦
ملكوت السماوات والأرض ٤٥
الله يطلب من عباده اليقين ٥١
رحلة الروح بعد الموت ٦١
كيف نحصل على اليقين ٧٨
درجات الذكر ٩٣
درجات اليقين ٩٨
إبحار في أعماق القرآن (مقالات في التفسير) ١٠٩
ما هو التأويل؟ وما هو التفسير؟ ١١١
معنى «الخَلْق» في نص القرآن الكريم ١١٨
كيف وُلد الكون؟ وكيف يموت؟ ١٢٣

البحث عن الجنة المفقودة (الفن واللعب والجنون) ١٢٨
كيف نجا موسى وهلك فرعون؟ ١٣٨
من هو ذو القرنين؟ ١٤٦
المائدة (العشاء الاخير للمسيح) ١٥٠
أدلة رجوع المسيح من القرآن إلى الدنيا قبل قيام الساعة..... ١٥٣
«الأمة الوسط» ١٥٨
«حقيقة الصيام» ١٦١
«إلا الصوم فإنه لي» ١٦٥
«وبينات من الهدى والفرقان» ١٧٠
يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر (تاريخ فريضة الصيام في الإسلام) ١٧٧
وما أدراك ما ليلة القدر ١٨٨
المؤمن يموت مرة واحدة والكافر مرتين ١٩٢
فهرس الكتاب ١٩٥
الكاتب في سطور ١٩٧

الكاتب في سطور

الاسم: توحيد عبد الفتاح حواش الزهيرى

تاريخ الميلاد: ١٦ فبراير ١٩٥٣م.

المهنة: طبيب

عضو عامل باتحاد الكتاب المصريين.

العنوان: جمهورية مصر العربية – محافظة القليوبية – طوخ – منـزل رقم ١٩ الطريق السريع – أمام نقطة المرور.

تليفون: ٢٤٦١٩٢٦ / ٠١٣

محمول: ٠١٢٨٣٢٢٤١٢٥.

البريد الألكترونى: tawhiedelzohety@gmail.com

الصفحة الرسمية للدكتور/ توحيد الزهيري

https://www.facebook.com/TawhiedElZohery/

عنوانها الصفحة الرسمية للدكتور توحيد الزهيرى

المؤلفـات المنشـــورة:

(١) **كلمة من الله** – رواية تاريخية تتناول حياة المسيح عيسى ابن مريم، فى سياق عرض تاريخي للعصر الذي عاش فيه – صدرت فى نوفمبر ١٩٩٣، الطبعة الثانية يناير ٢٠١٩– منشورات دار الإيمان للمعرفة، ١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر.

(٢) **نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن** – دراسة تؤسس لموقف إسلامى أصيل فى ميدان فلسفة الفن والجمال. صدرت عام ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م، عن دار القلم ٣٦ شارع القصر العينى، القاهرة. ص ب: ٦٥ مجلس الشعب.

(٣) **القرآن معجزة كل العصور** – مدخل إلى فهم النص القرآنى، دار الشعب، القاهرة (٩٢ شارع القصر العينى) عام ١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م.

(٤) **الماء فى القرآن والسنة والعلوم الحديثة** – دارسة فى الإعجاز العلمى للقرآن صدرت عن مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة (شارع عبدالله العربى، الحى السابع، مدينة نصر) عام ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.

(٥) **التحديات التى تواجه العالم الإسلامى**. البحث الفائز بجائزة الدكتور / محمد شوقى الفنجرى لخدمة الدعوة والفقة الإسلامى، الناشر دار الجميل، القاهرة، عام ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.

(٦) **لمحات من حياة نبى الرحمة** - سلسلة دراسات إسلامية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.

(٧) **الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة**، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة (٣٦ شارع القصر العينى، ص.ب: ٦٥ مجلس الشعب)، عام ١٤٣٢ هـ = ٢٠١١م.

(٨) **شرعية الأحزاب السياسية فى القرآن والسنة**، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة (٣٦ شارع قصر العينى، ص.ب: ٦٥ مجلس الشعب)، عام ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م

(٩) **الطريق إلى غار حراء** - رواية تقص حياة النبى قبل نزول الوحى عليه.

(١٠) **فى غار حراء عندما عانقت الأرض السماء**، رواية تقص مشهد الوحى فى غار حراء، صدرت عن دار النشر للجامعات، والوادى للثقافة والإعلام، ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م.

(١١) **أول الطريق** - رواية ورؤية لنشأة الكون ونهايته، صدرت عن الوادى للثقافة والإعلام، ودار النشر للجامعات، ٢٠١٥.

(١٢) **الجمال فى القرآن الكريم**، دراسة لمفهوم الجمال ومدخل لقراءة النص القرآنى -٢٠١٦، دار النشر للجامعات بمصر.

(١٣) **حقيقة المعراج** - تأويل جديد.

(١٤) **عند الغروب ولمن الملك؟** - روايتان قصيرتان، دار النشر للجامعات، ٢٠١٦. فازت رواية «عند الغروب» بجائزة «إحسان عبدالقدوس».

(١٥) **سر القدر (غزوة حنين)** - رواية ورؤية ٢٠١٦م.

(١٦) **ما معنى تجديد الخطاب الدينى؟** رسالة لمن يهمه الأمر... ٢٠١٧.

(١٧) **فتنة الخوارج** - ما أشبه الليلة بالبارحة. ٢٠١٧

(١٨) **فتنة السطان (حصار الطائف)** - رواية، دار الإيمان للمعرفة ٢٠١٨.

(١٩) **الزكاة** - طريق العودة إلى حقيقة الإسلام، دار الإيمان للمعرفة.

(٢٠) **حتى لا تسقط الراية (سرية مؤتة)** - رواية، دار الإيمان للمعرفة، ٢٠١٩.